رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دراسات ونصوص

عبد الجبار ابن حمديس

حياته وأدبه

زين العابدين السنوسي

الدار التونسية للنشر

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

دراسات ونصوص

عبد الجبار ابن حمديس

حياته وأدبه

زين العابدين السنوسي

الدار التونسية للنشر

© 1983 الدار التونسية للنشر

الاهـــــــداء

واني لاهدي من سلوك فرائدي
ومعجز نظمي كل جوهرة بكـر

اذا ما بنى بيتا من الشعر مقولي
ثنى نابيا عن هدمه معول الدهر

وما الشعر ما يخلو من الكسر وزنه
ولكنه ((سحر)) ونافثه فكري *

عبد الجبار بن حمديـس

(*) القصيدة 143 الابيات : 55 ، 56 ، 57 .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تغريبـــــــــــة

عبد الجبـار بن حمديـــس

(447 ـ 527 هـ / 1055 ـ 1133 م)

قـرأت وحـدي علـــى دهـــري تغربـة
فمـا اعاشـــر قومـا غيـر مغتـرب (*)

(*) البيت 6 من القصيد 14 .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الشاعـــــــر

شاعر ملهم ، فياض بالشعور والاحساس الرقيق ، خصب الخيال ، سلس التعبير ، متين الصوغ ، متفنن ، يتوصل لبيان أغراضه بما يحس ويشاهد من ألوان الطبيعة . ولا يقتصر على الناحية المادية منها ، بل يمزجها بعصارة نفسه ، ويتخذها مطية لبيان أحاسيسه ووصف أفراحه وأتراحه ، اذ ذاق في حياته ألوانا من حلوها ومرها ، فمن هجر من ذوات الدلال والجمال ، الى مفارقة لعزيز الأوطان ، الى سقوط دول عزيزة عليه وقيام اخرى بغيضة الى نفسه .

واذا ما أقبلت عليه الدنيا ـ وخاصة في زمان شبابه ، وفيما لاقاه في بلاطات الملوك الذين عاش في قصورهم ـ تفتقت شاعريته على ألوان من أدب اللهو والمجون ، وأبداع في وصف مجالس المنادمة وتصوير حالاته مع ما جرى له في علائقه مع الحسان .

والى القارىء الكريم ما قاله أبو العباس المقرىء ، الأديب الكبير والناقد البصير ، وقد اطلع على قصيدته التي هنأ بها المنصور بن علناس لما بنى قصره بقلعة بني حماد ببجاية : « لم أر لهذه القصيدة من نظير ، في معناها اليانع النضير ، ولفظها العذب النمير ، الذي شمر فيه قائلها على ساعد

الاجادة أي تشمير ، غير أن فيها عندي عيبا واحدا وهو ختمها بلفظ التدمير ، وعلى كل حال فالحسن والاحسان ، مقادان في ارسان لعبد الجبار بن حمديس ذي المقاصد الحسان ، خصوصا في وصف المباني والبرك ، فما أبقى لسواه في ذلك حسنا ولا ترك » .

ولا اخاله الا تنبأ بخلود شعره على مر الأزمان والأيام اذ يقول :

اني امرؤ ابني القريض ولا أرى
زمنا يحاول هدم ما أنا بان

صنع بتحبير البيان وحوكه
فكأنما صنعاء تحت لساني

وأفيد نوار البديع تضوعا
متنسما بدقائق الأذهان

والشعر يسري في النفوس كمثلها
تسري بك الصبهاء في الألحان

ولقد شاوت الريح فيه مسابقا
من بعدما امسكت فضل عناني

وطعنت في السن الكبير ومانبا
عن طعن شاكلة البديع سناني *

ابن حمديس

(*) القصيدة : 331 الابيات : 30 ـ 35 .

اسمـــــــه *

كنيتـــه : ابـو محمـــد

اسمـــه : عبد الجبـار

لقبه العائلـي : ابن حمديس

اسم ابيـــه : ابو بكـر

اسم جـده : محمـــد

نسبـــه : الأزدي

(*) ضبط صاحب وفيات الاعيان اسم « حمديس » بالتهجية الكاملة فقال : « بفتح الحاء المهملة وسكون الميم وكسر الدال المهملة وسكون اليـاء المثناة من تحتها ، بعدها سين مهملـة » .

ولعل تدقيقه ذاك يدلك على ان هذا الاسم قد كان نادرا في المشرق لعهد ابن خلكان في القرن السابع بمصر والشام وما اليهـا .

واذا رجعنا لما بقي في التاريخ نجد هذا الاسـم « حمديس » كـان متوفرا بافريقيا منذ القرنين الثاني والثالث . فمن عرف بهذا الاسـم فيالتاريخ حمديس الثائر على ابراهيم الاول مؤسس الدولة الاغلبيـة ثم حمديس المنجم الذي كان يغري ابا عقال بالثورة على ابراهيم الثاني حول سنة 280 هـ . واشهر منهما حمديس القطان زاهد افريقية وواعظها في عصر ابراهيم الثاني هـذا .

ولعل سلف شاعرنا قد نزح عن مدينة صفاقس ، فدخل صقلية فـي ءاخر العهد الاغلبي عند حركات تطهير الجزيـرة .

أصلـــــــه

المفهوم ان عائلة ابن حمديس كانت متشعبة من الازديين الذين هاجروا من جزيرة العرب الى افريقية في النصف الاخير من القرن الأول . ثم انتقل جدهم الى صقلية أوائل القرن الثالث هجريا عند فتح الجزيزة ، الذي خرج له أشراف العرب من القيروان وما اليها . بحيث كانوا من الجالية العربية التي فتحت الجزيرة واستقرت فيها ، فتعاقب نسلهم فيها أجيالا متطاولة :

أحن الى أرضي ، التي من ترابها
مفاصل من أهلي ـ بلين ـ وأعظم (1)

ويزيد هذه الحقيقة توكيدا ، روحه الحماسية الفادية لصقلية وطنه :

الا حبذا تلك الديار واهلها ويا حبذا منها رسوم واطلال
ويا حبذا منها تنسم نفحة تؤديه أسحار الينا وآصال
ويا حبذا منها تنسم نفحة مفاصل منهم في القبور وأوصال
ويا حبذا ما بينهم طول نومة
تنبهني منها الى الحشر أهوال (2)

فله بها مقابر وآباء وأجداد ، وسنرى ان أباه أبا بكر قد أبى أن ينزح من جزيرته صقلية عندما نزح شباب العرب عنها كما سيأتي . فهم متشبثون بأرضهم .

---

1) القصيدة 285 ، البيت : 46 .

2) القصيدة : 250 ، الابيات 66 ـ إلى ، 69 .

مولـــده ونشاتـــه

ولد عبد الجبار بن حمديس سنة (447 / 1055) في بلدة نوطس على مسافة 25 ك . م . من مدينة سرقوسة (1) التي هي على الضلع الشرقي لجزيرة صقليـــة .

وتوفيت والدته وهو شاب تاركة اياه وبنتا صغيرة . وتزوج أبوه أبو بكر بصبية صقلية عظيمة الجاذبيـــة والتاثيـــر ،

---

1) سرقوسة (Siracusa) هي الثغر الشرقي الاكبر لجزيرة صقلية في ذلك العهد ـ وهي اليوم المدينة الثانية بذياك الضلع ، بعد ثغر (Catania) وباعتبار سرقوسة هي المدينة الثغر الذي نزح منه مسلمو الجزيرة وهي اقرب العواصم الى بلدته التي ولد فيها وترعرع « نوطس » فقد نسب اليها ، اذ كان هاجر مع فرقة الثغر من مجاهدي سرقوسة .

ونوطس (Notos) هي بلدة (Noto) اليـــوم ، تقع على مسافة 20 ك . م من مدينة سرقوسة غربي الثغر . واسمها في جميع الكتب العربية بالسين ختاما « نوطس » كما استلمها العرب من الاحتلال اليوناني قال ابـــن خلدون « ففتحت مدينة نوطس سنة 255 هـ واستامن اهل طبرمين ثـــم غدروا . فسرح ابنه محمد (يعني ولد خفاجة ، الوالي على صفاقس) السبـــاء (ديوان العبر 4 : 204 ط . مصـــر) .

ونجد ابن جمديس سنة 488 هـ . نائما في مجاهل المغرب وصحرائه ، وهو يتغنى بمسقط راســـه :

الا في ضمـــان اللـــه دار بنوطـــس ودرت عليهـــا معصـــرات الهـــواضب
امثلها في خاطـــري كـــل ساعـــــة وامـــري لهـــا قطـــر الدموع السواكب
احـــن حنيـــن البكر للموطـــن الـــذي مغانـــي غوانيـــه اليـــه جواذبـــي
ومن يك عـــن ارض ثوى قلبه بهـــا تمنـــى لهـــا بالجســـم اوبـــة ايـــب

القصيدة : 28 ، الابيات : 52 ـ 55 .

فاخلص لها الأب ، بينما الولد قد كفله جده محمد بن حمديس وضمه الى ابنته فهي عمة شاعرنا) أرملة ابن أبي الدار التي ضمته مع أخته الى ابنها علي وابنتها ، تنشىء اربعتهم وتحظيهم .

وقرأ الصبي ، فتخرج أحسن تخرج في أرقى ما بلغته العلوم البشرية في عصره .

واذا كان مترجموه لم يذكروا أسماء شيوخه وأساتذته ، الذين قرأ عليهم وتخرج ، فلأن مترجميه قد كانوا من غير مواطنيه ، ولأن صاحبنا لم يكن يعنى بذكر شيوخه ، فذلك قد كان شأن الفقهاء لتدعيم الرواية التشريعية ، بينما هو شاعر ! والا ، فان ديوانه يرينا مبلغ ثقافته وعلومه المنوعة المتينة كما تكدست في جزيرته صقلية حسبما نعرض له في الفصل بعده .

الثقافـة في صقليـــة

اذا حصرنا نظرنا في الثقافـة ـ لعهده ـ في صقليـة ، رأيناها مكتظة بالعلماء وأصحاب النشاط الذهني ، اكتظاظا يفوق انتاجها الذاتـي .

ذلك انها قد كانت محط رحال المهاجرين من افريقية ، منذ سنة 444 هـ . حيث تشرد علماء القيروان وأدباؤها ، أمـام زحف بني هلال وما تبعه من كوارث فلجأ اليها ابن رشيـق وأمثاله من طبقات العلماء والأدباء والأطباء والصناع ... بحيث كانت الجزيرة الصغيرة تنعم في ميـراث واسـع من مخلف القارة الافريقية التي أخذها التزاحم والحسد . بحيث فاضت الثقافة على مستواها ، بما وفر فيها العلم والصنائع والفنون فاهتزت الهمم وانسكبت العقول والأذواق .

وفضلا عن تلك الهجرة القيروانية ، قد أصبح للجزيـرة صلاتها بمصر ، حسب تبعيتها للدولة الشيعية ، فيتوافـد من مصر والشام على ثغر سرقوسة كبار التجار والسياسيين وغيرهم . كما أن هاته الجزيرة قد كانت نقطة الاتصال بين الحضارة الاسلامية والحضـارة الروميـة التي كانت تهيىء نهضة جديدة ، تعتمد فيها على اقتباس ما عند هؤلاء العرب من علم وروابط اتحاد ، لا غنى لها عن اقتباسهـا والنسـج على منوالهـا .

بحيث ان ابن حمديس قد ولد في هذا الجو المفعم بالتيارات الفكريـــة وفي فترة التحام بين الشرق والغرب سيسفران عن انقلاب عظيم في الاتجاهات الفكريـــة .

شبابـــــــه

واذا بوالدة الصبي عبد الجبار تموت ، فتتركه مع بنية أصغر منه . واضطر الوالد ابو بكر بن حمديس الى ان يتزوج فكانت زوجته الجديدة صبية صقلية لم يطب لها ان تربي الأيتام ، اذا فقد انتقل الشاب والطفلة الى كفالة جدهما محمد بن حمديس الذي رجعت اليه ابنته ايضا بوفاة صهره يوسف بن ابي الدار . وقد كانت الارملة المسكينة مثقلة هي ايضا بولدين اثنين هما ابنتها (أ) (1) التي كانت قد شبت في سن يقارب سن اليتيم ابن خالها ، والطفل علي الذي كان لا يزال في عهد الطفولة . فكان من الارملة ان ضمت في كفالتها الايتام الاربع ، وسهرت على تنشئتهم وتربيتهم أزكى تربية . وسنرى مبلغ تدبيرها ومبلغ توفقها في ضم شمل هـــؤلاء الشبان الاربع ومبلغ حنانها ، كما يحدثنا صاحبنا عنهـا :

---

1) كان الحجاب مضروبا على المراة حتى وجهها وكفيها وعلى اسمها ايضا . بحيث انه لم يذكر اسم زوجته ، وانما نعرف من رثائه لها انهـا بنت ابن ابي الدار فهي بنت عمته . وقد بلغ من تورعه عن ذكر زوجتـه ان جعل مرثيتها على لسان ابنه كما تراه في تلك القصيدة ، على حرف الميم ، وهو تحت عنوان : ام البنيـن .

وكنت اذا ما ضـاق صدري بحـادث
فزعت بنجـواه الى صدرها الرحـب

فتذهب عنـي هـم نفـسي كأنمـا
شفت غلة الضمآن بالبارد العذب (2)

وقد كان مترجمنا قوي الأعصاب نشيط الحركـة ، عـزم الحيوية ، سريع الخاطر ، دقيق الملاحظة ، وثابا مفترسـا لغاياتـه .

وسهر الجد والعمة على تعليـم الأولاد وتثقيفهـم وعلـى تحبيبهم العلم والمعرفة وتنشئة أنفسهم متطلعـة للتكمـل العقلي والتفوق الذهني بحيث امتلأ وطاب صاحبنا عبد الجبار معرفة وآدابا وعلما ، وكان علمه ذلك له سندا عاش عليه يوم انصرمت من بين يديه ثروة آبائه واعزة استقراره على التراث ، وخلد أدبـه بيننا حتى اليـوم .

كما أن الشاب الآخر علي بن أبي الدار ، قد استكمل علومه وتخصص في الطب حتى أمكنه أن يكون سندا عمرانيا حيثما حل من افريقية أو المشـرق .

☆ ☆ ☆

ثم ان ابن حمديس قد داهمته سن المراهقة والرجولة الباكرة فتورط في حب صبية لا تقل عنه نضجا وتربية ، وهي على أخلاق جميلة وكمالات نفسية وجسمانية قد أثرت عليه تأثيرا عميقـا . ولم يلبث حب الشابين أن افتضح وعرف .. وهذا الحب يصطدم مع برنامج الحبكة التي أعدتها هاتـه العمـة

---

2) القصيدة 29 ، البيتان : 35 ـ 36 .

الحدوب لشد اواصر العائلة وترميم مصالحها وتآلفها . فبادر الجد والعمة الى تزويج الشاب الناضج ، ومفاداة نزواته ، بأن أدخل على الصبية الكاعب : بنت اعمته . فحجبت طيش شبابه واعمرت حاجة نفسه بالحب العائلي والبنين .

على أن عواطف عظمى قد مكنت للشاب أن تتحرر نفسه من كل ما مهده التدبير ، فكان يندفع في مغامرات للحب المتنوع الاعتبارات والمقاييس والطهر ، مما اضطرنا غرابة انواعه لأن نفرده بدراسة مستوفاة « الحب والجمال في حياة ابن حمديس » (3) . فليرجع اليها القارىء اذا أحب أن يستكمل هذا الباب من حياة شاعرنا الحساس .

واخيرا نرى ذاك الجد محمد بن حمديس قد توفي ودفن هناك . فيقول اعنه شاعرنا :

تنسك في بر ثمانين حجة ويا طول عمر فر فيه الى ربي

ضممت الى صدري بكفي جسمه
واسندت مخضر الجنان الى الجنب

تبركت الأيدي بتسوية الثرى
على جبل راسي الأناة على هضب (4)

---

3) من السلسلة التي نصدرها من اعمال زين العابدين السنوسي .
4) القصيدة : 29 مرثية العم ، الابيات : 39 ـ 41 .

منشـــــــاه

ليس غريبا أن نفترض انتقاله من نوطس الـى مدينـــة سرقوسة ، في دور انتقاله من دار أبيه الى كفالة جده . فقد يكون الجد مقيما بسرقوسة وهي المدينة الثغر ، وما نوطس الا قرية من قراها تقع على ما دون العشرين كيلومترا منها .

وعلى كل حال فان ثقافته المتسعة تبيح لنا افتراض انتقاله الى المدينة ، منذ عهد شبوبه عن الطفولة الغرة ، وبداية تيقظه العقلي ، وكانت سرقوسة ـ لعصرها ـ محطة نزول واتصال الجزيرة بأمها القاهرة منذ انتقلت الدولة الفاطمية من القيروان الى مصر . بحيث أصبحت سرقوسة هي عاصمة الجزيرة اداريا وتجاريا ، بفضل موقعها على الضلع المواجه للمشرق من المثلث الذي تتشكل عليه جزيرة صقلية التي تقسم البحر المتوسط الى شطرين .

ومن طبيعة المدن أن تسترق من القرى التي حولها ، نسبة العظماء ، خصوصا اذا دخلوا في غمرة أعم ، تستوجب الجهة كلها . وهكذا راينا ابن حمديس يهيب بابناء الثغر من الفرقة التي اندمج فيها ، عند تهجم الصليبيين على الجزيرة :

بني الثغر ! لستم في الورى ببني امي
اذا لم أصل بالعرب منكم على العجم (1)

ولعل حماسياته التي حفظت في ديوانه قد كانت مما انشاه في افريقيا واندلس بعد ان هاجروا وعقدوا نظام فرقة « بني الثغر » الحربية ضد الصليبيين .

ونحن بنو الثغر الذين ثغورهم
اذا عبست حرب ، بهم تتبسم (2)

ولا غرو فمن سرقوسة قد كانت هجرتها ، واليها ينتسب اهل الجزيرة الذين تجمعوا فيها وهاجروا منها ، عاقدين وحدتهم وعزمهم على الرجوع والانتقام .

ولعل مثل هذا القول هو الذي حدا بامية بن ابي الصلت الأندلسي ـ الذي لحق شيخوخة شاعرنا ـ ان ينسبه الى سرقوسة المدينة الثغر في كتابه « حديقة الشعراء » . وعلى قدمه جرى ابن بسام في « الذخيرة » ثم تابعهم غيرهم من المتاخرين ، حتى تورطوا في ادعاء أن مولده قد كان فيها ، رغم نص ابن حمديس على بلدته « نوطس » :

الا في ضمان الله دار بنوطس ودرت عليها معصرات الهواضب
امثلها في خاطري كل لحظة
وامري لها قطر الدموع السواكب
ومن يك ابقى قلبه رسم منزل
تمنى له بالروح اعودة آيب . (3)

---

1) القصيدة 288 « نجدة صقلية » . البيت : 1 .
2) القصيدة 285 « قومي وبلادي » . البيت : 18 .
3) القصيدة 28 « امنية الطريد » . الابيات : 52 ـ 53 ، 55 .

الهجـــرة عن صقليـــــة

كان عبد الجبار بن حمديس في العشرين من ربيع حياته عندما نزل « النرمانديون » على أرضه وجزيرته « صقلية » يقتلون ويسلبـون ويملكـون !

فهو في اكتمال سن الرجولة والنخوة البشرية ، وقد أصبح ذا زوجة وأولاد وأصهار وأقارب . وهو في سعة من العيـش ورغد الحياة المعتزة بموقف الأمة العربية في تلك الجزيـرة الأوروبية التي كانت على تخوم العروبة في شمالي البحـر المتوسط ، فياتيها رزقها رغدا ولا يتحمل أهلها تكاليف كبيرة بل حسبهم موقفهـم المخلص على تخـوم الارض اللاطينيـة والمركز الديني الأكبر للمسيحية ، فهي قد حذقت صراع رومة بما تداهمها به على مدى السنين في مضيق مسينة ... وهي حالة مزمنة للجزيرة ، خاصة في دورها الاسلامي ... وهي حالة عامـة أيضا للتخوم ، منذ كون الانسان جماعاته علـى الأرض واشرأب للوحدة البشرية ، ومازال يترجـم هاتـــه الرغبة الطبيعية الشريفة بظاهـرة عكسيـة مـن التقاطـع والحروب . لذلك كانت الخلافة الفاطمية تواسي أهل الجزيرة وتمدهم بكل ما يذكى نخوتهم واعتدادهم ، وتمدهم بكل مـا يزين حياتهم في عيون أجوارهم ويجعلهـم الوجـه الكريـم للاسلام وللعـروبة .

بحيث كانت جزيرته صقلية قائمة على توازن دقيق بين مختلف سكان البحر المتوسط . بل ربما رأينا من هاته الجزيرة لسان الميزان بين شقي شعوبه ؛ على ضرب مما تراه اليوم من توازن بين الشيوعية والديمقراطية الراسمالية من بعد الحرب العالمية الثانية ، ونحن في سنة 1958 . انما كان يقوم مقام هذا التنابذ في الاقتصاد السياسي ، ان عصرها عصر التنابذ الديني بما بناه من الحياة الروحية التي حضنت المصلحة الاجتماعية قبل أن يكتشف الانسان نواميس الاجتماع ويفردها عن درس نفس الفرد وحاجياته الذاتية وعن الاقتصاد . وقبل أن يدين بالوطنية التي ظهرت في العالم المتحضر في القرن الماضي 19 م .

ولكن ذلك التوازن قد اختل وانقلب فجاة بتدخل عنصر عظيم جديد ، وهو عنصر الشمال الأوروبي من الذين هبطوا من بحرهم الكبير الى بحرنا المحدود ، على طريق جبل طارق ، تحت تاثير اهابات الكنيسة بأممها حتى يغزعوا لاحتلال بلاد الاسلام .

وهكذا خرج « النرمان » من شواطىء بحر الشمال يمتطون الواح مراكبهم ... فطافوا بظهر جزيرة الأندلس يسبرون قوة الاسلام على شواطىء البرتغال ، ويحتلون ما امكنهم احتلاله. ثم جازوا مضيق طارق يجوسون أطراف اراضي افريقية وأوروبا من جميع شواطئه .

حتى وجدوا نقطة الضعف في الجزر ، فاحتلوها . حيث صادفهم حقبة ضعف الأسطول المصري الذي كان صاحب السيادة عليها .

فنزلوا أولا جزيرة مالطة وركزوا على صخرتها الثابتة قدمهم ، ثم هاجموا جزيرة قوصرة ، فوجدوا رد الهجوم قد جاءهم من جزيرة صقلية حيث يقيم أسطول للدولة الفاطمية الصقلية ، وقد تجهز قادته وعبؤوا عساكر من رجال الجالية العربية ومن الصقليين الموالين ، سواء فيهم الذين أسلموا بالفعل والمؤلفة قلوبهم من نصارى الجزيرة التي عاشت اكثر من قرنين في كنف السيادة الاسلامية . فغزا الاسطول الفاطمي الصقلي جزيرة قوصرة واسترجعها من النرمان .

ثم قر قرار زعيم النّرمان « رجار » على غزو جزيرة صقلية نفسها ، فخالف الأسطول العربي ونزل الجزيرة في غيبة حماتها سنة (470 ـ 471 هـ / 1078 م) ثم ألح في امتلاكها .

هنا قد وجدنا العناصر الاسلامية المخلصة في جزيرة صقلية تقع في المحنة ، اذ فقدت القوة النظامية من المدد الذي تعودته من افريقية ، وفقدت المدد الذي انتظره الولاة الفاطميون من مصر .

وفي هذه الحالة اعتمدت العناصر الاسلامية على نفسها في مجابهة الغزاة المكتسحين . وتشكلت لذلك فرق المكافحين والمصابرين ... وانما نحصر النظر هنا في فرقة « بني الثغر » التي كان صاحبنا ابن حمديس قد خلدها الينا بأشعاره الحماسية :

بني الثغر ! لستم في الورى ببني امي
اذا لم أصل بالعرب منكم على العجم (1)

---

1) القصيدة : 288 ، نجدة صقلية ، البيت : 1 .

ونجدهم هناك قد كونوا وحداتهم . الا أن القوات المهاجمة كانت أعظم من أن يجابهوها . فاضطروا الى حرب العصابات المتنقلة ، ودام الحال أشهرا لم يصلهم فيها المدد المطلوب . ونجد اليأس قد خامر أنفس الناس ، فاضطروا الى التخفف ، بارسال النساء والأطفال والشيوخ الى أرض الاسلام خارج الجزيرة المبلوة .

وهكذا بدأت الهجرة . وكانت العائلات المرابطة في الجزيرة من مختلف شعوب البحر المتوسط . ففضلا عن مسلمي الجزيرة ومؤلفيها من النصارى نجد المصريين والدمشقيين ونجد الأندلسيين والمغاربة ونجد الكثير من أهل افريقية من الذين جاؤوا الى الجزيرة في مختلف المواسم العسكرية والدينية والمواسم الصحية والزراعية طيلة القرنين الذين فتحت فيهما الجزيرة وخلدت الى النظم الاسلامية ، اذن فقد اتجه المهاجرون الوجهات المختلفة :

اعصا شملهم شتت . فشرق منجد
الى طيبة منهم وغرب متهم
كما قد ـ قد السير بالطول سيرهم .....
ولكنها المنقد قلبي المتيم (2)

فسار بعضهم نحو المغرب الأقصى او الأندلس ، وسار البعض نحو الشام والعراق ، وسار البعض الى الحجاز والبعض الى مصر رأسا ، والكثير نحو افريقية ، لاجئين الى اخوانهم وأقاربهم أو الى الحكومات الاسلامية التي أرسلت اليهم العمارات لنقلهم وأفسحت اليهم المأوى .

---

2) القصيدة 284 « نكريات وزفرات » ، البيتان : 14 ـ 15 .

وكان لآل ابن أبي الدار أصول وأملاك في صفاقس من افريقية . فارتحلت العمة البارة اليها مصحوبة بكنتها : أخت شاعرنا ، وبابنتها : زوجة شاعرنا .

بينما شاعرنا نفسه قد بقي مع الشباب يرابطون ويصابرون ويحمون ظهر المهاجرين ويشاغبون المغير المتسلط .

وكذلك أبو بكر بن حمديس والد شاعرنا ، فقد بقي في الجزيرة ، وانما الأب قد كان صنفا آخر من الباقين ، فاننا نراه قد انتهى الى الاستخذاء وملازمة جانب مصانعة المحتل والنزول على أحكامه ، حتى يقضي الله أمره ، ولعله قصد ببقائه أن يحفظ للعائلة أملاكها ، ريثما يعودون بالنصر .

لقد قلنا « بقي الشباب » وقد اعنينا به الذكور والاناث ، فاننا نجد نساء في شرخ صباهن قد أنجبن أزواجهن ثم بقين ـ هن ـ مع اخوانهم المدافعين .

ولعل من أجل الذكريات لتلك الويلات ، منظر المهاجرين على الأرصفة ، وقد يئسوا من الحياة التي اعتادوها على جزيرتهم ووطنهم ، فخرجوا للهجرة والاغتراب . وقد سلموا كل شيء كان لهم فيها ، حتى اخوانهم وأبناءهم والأزواج من الشباب ! وهي غصص تضيق بها النفس ولا تتوفق لأن تصوغها شعرا ، لعظمة الهول ... فقزعوا متكدسين على الارصفة والثغور ينتظرون دورهم ، لكي يركبوا الى الهجرة . وهم بين شيوخ وكهول وسيدات وشابات وصبايا قد يئسن من أن يصحبهن اخوانهن وأزواجهن المصابرون ، فهن يلقين اليهم بآخر نظرة ويتوقعن أن تكون فرقة الأبد ... فهول ما يتوقعنه من قرصان العدو الذي قد يكون لهن بالمرصاد وسط

البحر ، لا يقل عن خطر ما يقدم عليه الأبطال الذين اختاروا المصابرة والمرابطة في الوطن المنكوب .

ولسنا ندعي أن عبد الجبار بقي في ثغر سرقوسة ، فان المسلمين هناك قد لجأوا الى حرب العصابات ، فينتقلون بين المراكز العربية التي ثبتت صامدة في وجه العدو ويشنون على مراكزه الغارة في أطراف الجزيرة كلما سنحت لهم فرصة ، لقلقلة مركز الخصم المعتدي .

وبالفعل فاننا نجد شاعرنا في القرن الشمالي لمثلث الجزيرة نازلا في الرمدا (3) على مركز أمين من مراكز العرب بين مسينة وجبل النار « بركان آتنة » .

وفي تلك التنقلات والفترات والزحام نجد شاعرنا الشاب قد التقى بصديقة صباه ، شابة هي أيضا ، تتطوع للمجاهدين بالمواساة واعداد حاجياتهم ، ولعل فرقته قد نزلت قرب مركزها هي . وانما رأيناها هي في الجزيرة ، دون زوجها لأنه تقدمها بالنزوح الى افريقية .

وهنا نرى تصريفا جديدا للقدر ، الذي جمع الشابين بعد أن خلاهما من زوجيهما اللذين نجوا بعيدا عن الخطر ، بينما هاته الشابة قد بقيت تدافع الخطر الرهيب كما صمد اليه شاعرنا . وقد تخبطا في أعراض الحب والكرامة وعنف الغرام وما تلقته به من الصيانة ، هاته الشابة المجاهدة الكريمة طبعت نفسه في هاته الحقبة بطابع لم يبرحه حتى بعد أن

---

3) انظر قصيدة « حفلة صيد » وهي رجز على حرف الدال . رقم 81 في ط . روما ، رقم 90 في نسختنا .

شاخ وبلغ الثمانين ... فقد بقي يتغنى به وتحيا روحه به ... فهذا كله قد تعرضنا له في كتابنا « الحب والجمال في أدب ابن حمديس » (4) فليرجع اليه من تعلق غرضه بذيـــاك الاستعراض .

واخيرا فقد أركب هاته الحبيبة الحصان ـ بدورها ـ فـي شانية من ثغر سرقوسة نحو صفاقس وخلد لنا مبلغ تأثرها في وداعه على أرضهم المبلوة ، ذلكم الوداع الحار في اليـوم القارس من شهر دجنبر البـارد :

ذكرت الحمـى والساكنيـه ودونـه
خضم عليـه تنبري الريـح حرشفـا

ولمـا أقلـوا يـوم بينهـم علـى
«هلال السرى» للشمس خدرا مسجفا

وألقت حلاهـا من يديهـا وعطلـت
من الحلـي فيه جيـد ريـم تشوفـا

سقـى الأقحوان الطل جوهر غبـه
وعضت من الحزن البنـان المطرفـا

ولمـا جرى الـدر الرطيب بخدهـا
وسـال الـى الدر النظيـم توقفـا

وأين تـراه ذاهبا عـن جنـى فـم
كـأن رضاب الكـأس منه ترشفا (5)

---

4) فصل المحبـان » .

5) قصيدة « الملك علي » 199 ط . روما ، طبعتنا : 211 ، الابيات : 12 ـ 17 .

فهي شائحة الريق جارية الدمع على الخدود يسيل الى جواهر أسنانها ، وقد قطعت عقد الجوهر عن عنقها في حركة عصبية ، فألقت به متطلعة بجميع جيدها نحو البر الذي أخذت تفارقه السفين ...

وانما أمكن لابن حمديس أن يصور قطعا من تلك المناظر المشجية ، بعد نيّف وأربعين سنة ، قد بردت نارها أثناءها على نفسه ، ثم أمكن لنفسه أن تتغلب بعض التغلب على غصصها ، فنثر صورا منها هنا وهناك ، في أثناء قصائده المطولة .

ومع كل ذلك فقد بقي خليطا غريبا من الغزل والحزن ، رغم نصف القرن الذي مر عليها . وهكذا أخرج لنا روائعه من « الغزل الباكي » الذي عنينا به في مكانه (6) اذ بقي لآخر لحظة يبكي شبابه ووطنه بأناشيد يزين بها مواكب ملوك عصره ، فتهتز له عروش القلوب ، مثلما يحدث به عن أفعال السحاب عندما « يقهقه ضاحكه بالرعود » (7) .

بقي الشباب المجاهد في صقلية ، وحيي ابن حمديس حقبته تلك حياة الكواسر ، لا يبيت على أمن ولا يعرف الأمان والاستقرار . فعليه أن يحقق حياته بكل ما يحف به من حياة وموت .

وقد سمح له شبابه وقوته وايمانه أن يقضيها في عزة وصولة ، مهما كان الجو الذي يعصف بالجزيرة المأخوذة في

---

6) انظر كتاب « الحب والجمال في ادب ابن حمديس » .

7) القصيدة : 84 « انشودة الطريد » وسياتيك منها ابيات .

التيار العرم من الحرب الصليبية التي بدات العالم الاسلامي من جزره القصية . وقد وصف لنا في اصبه مواقف غريبة من الحياة الضنك التي كان يعطرها باخلاقه ونزوات الشباب (8)

ولكن مصر التي تبنت جزيرة صقلية منذ سنة 357 هـ بانتقال المعز لدين الله الفاطمي من القيروان الى القاهرة ... لم توفد القوات والمدد المطلوب ... فلم يجد عرب الجزيرة ومسلموها بدا من اختيار احد الطريقين : النزوح عنها هجرة ، او الاستسلام .

---

8) انظر كتابنا « الوطنية في ادب ابن حمديس » . واقرا مقطوعة الغريب : « هتك العصر » على حرف النون ، وكذلك قصيدته : « ليلة اللهو » .

في افريقيـــة

نزح عبد الجبار ، ولم يقصد الهجرة مطلقا . بالعكس فقد كانوا يؤمنون بقوة الوحدة الاسلامية والعالم الاسلامي .

فانتقل لافريقية سنة (471 هـ / 1079 م) (1) نازلا صفاقس حيث سبقته عمته ، بزوجته وأولاده وباخته والعائلة . وكانت زوجته قد فارقته حاملا في شاطىء الجزيرة المنهوكة صقلية . وها هي قد وضعت حملها ، ذكرا ، أسماه عمر . وهو من الأسماء السنية الرائجة لعصرها بين المتكدرين من النزعة الشيعية التي كانت عليها الدولة الفاطمية بمصر .

ولعل شاعرنا قد وصل مصحوبا بابن عمته الحكيم علي ابن الحسين ابن أبي الدار قبل أن يصبح طبيبا ، أو لعل عليا قد سبق لافريقية ، حيث يتم علومه ثم لحقته العائلة المهاجرة كلها ، فنزلوا جميعا على بيت يوسف جد علي لأمه أي والد تلك العمة البارة .

وانما نعرف أن والد شاعرنا لم يأت الى افريقية ، واستكان الى البقاء في الجزيرة . وماذا عساه يخافه من هؤلاء الغزاة المحتلين ؟ حسبه أن أنجى في بنيه تراث العروبة والاسلام ، ولم يستبق الا الطينة الشائخة الصبور تحرس أملاك العائلة

---

1) انظر تنويج القصيد : 98 ط . رومـا .

وتصانع المحتل للجزيرة في انتظار الأقدار . ومع ذلك فقد خلد لنا شاعرنا من عواطف الأبوة والبنوة تمازيق مريرة :

ويا انس لا أنس يوم الفراق وأسرار أدمعنا فاشيه
ومرت لتوديعنا ساعة بلؤلؤ أدمعنا حامية
ورحت الى غربة مرة وراح الى غربة ساجية (2)

وحدث عن نفسه ـ بعد دهر ـ وهو في فيافي غربته الموحشة : أنه كان يسمع نداء أبيه من وراء البحر في صقلية :

سمعت مقالة شيخي النصيح وأرضي عن أرضه نائيه
كأن بأذني لها صرخة ليهدي بها «عمر ساريه» (3)

---

2) القصيدة : 354 « مرثية الوالد » ، الابيات : 19 ، 20 ، 22 .

3) من القصيدة 354 البيتان : 24 ـ 25 . بديوانه .
هو سارية بن زنيم بن عمرو الاسدي قائد الجيوش العربية في حصار مساود لحرد ببلاد فارس عند تخليصها من الاستعباد الكسروي على عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
اما اوليته قبل الاسلام فقد كان من كبار الدهائين الصعاليك . ثم تاب واسلم وحسن اسلامه ويسند له او لاخيه انس بيت من الشعر نص ادباء السلف على انه اصدق بيت قالته العرب . وهو قوله :

فما حملت من ناقة عن حمالها أبر واوفى ذمة من محمد

ثم اشتهر في المجاهدين بالشجاعة حتى راياه يقود الجيوش كما قلنا .
وقد روى التاريخ الاسلامي لهذا القائد في تلك الواقعة غريبة خلدته في الذهن لما في سردها من الروعة والجلال ، نوردها هنا باختصار فانها هي الركن في فهم البيت حيث ان ابن حمديس انما اشار للقصة . قالوا : خرج عمر يوم الجمعة الى الصلاة ، فصعد المنبر يخطب ، واذا به يهتف : يا سارية الجبل ! يا سرية بن زنيم الجبل ! ظلم من استرعى الذئب الغنم » .
ثم خطب مستانفا ما كان فيه حتى فرغ ، وعجب الناس ، وسالوه فلم يخف عليهم ذات نفسه : لقد كانت حال نفسية اخذته لا يمكن لعقله ان يتاولها : « ولله ، ما القيت لها بالا ... سرى هكذا على لساني ... »

ومرت الحادثة ولكن حديثها بقي بين الناس « يا سارية الجبل » ان سارية هو قائد جيوش الاسلام ، وقد غامر في مجاهل بلاد الاكاسرة ، فهل كان الخليفة ـ حتى في ساعة خطابه ـ مشغول الذهن به عامر الباطن منه ، عمرانا انساه موقف الخطابة في الامة ، واشرف به الى التخوف على قائده وجنود الاسلام .

مرت الايام واذا بكتاب القائد ياتي الى خليفة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيقرؤه على الامة في الجامع مثلما سارت عليه العادة انذاك وفيه : « ... ان الله فتح علينا يوم الجمعة لساعة كذا وكنا في شدة بالوادي ، حتى خلجتنا الظنون ، اذ انا اسمعك تهتف بنا ن ننحاز الى الجبل فعلوت باصحابي الجبل على الوادي ونجحنا في تسلقنا واصبح العدو تحتنا فانقلب الموقف وجاء نصر الله والفتح ... » ... واذا في القوم المستعين لخبر النصر من يهتف بعمر : الله اكبر ! انها كلمتك ! اكوشفت ؟ .

وكانما كلمة الرجل قد اعادت للاذهان ما غفل عليه الناس جميعا يا سارية الجبل ! يا سارية بن زنيم الجبل ! ظلم من استرعى الذئب الغنم ! واعتبرها الناس من كرامات الخليفة بينما الخليفة لا يفكر ابدا في هاته الناحية من المسالة ويبتسم قائلا :

« ما اخذت لها بالا ، سوى انه اتى على لساني ! ولكنه النصر المبين : اذا جاء نصر الله والفتح ، ورايت الناس يدخلون في دين الله افواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا » .

وهكذا اشتهرت هاته الكلمة اشتهار الامثال، واخذ النحاة نصها مثلا يسوقونه في باب حذف العامل واجراء عمله اذ تقديره : اصعد الجبل . ولهم فيه ما ليس لنا فيه دخل . وانما نلاحظ انهم اعطوا للكلمة شهرتها ببحثهم وتمحلاتهم « يا سارية الجبل ! » فعرفوا سارية هذا واكدوا شهرته وانما تتمة الرواية من قول عمر رضي الله عنه : « يا سارية ابن زنيم الجبل ! ظلم من استرعى الذئب الغنم ! ففي الشطر الاخير من هذا النداء بحث طريف عن مبلغ تحريض عمر ابن الخطاب لقائده على عدم المجازفة بالمسلمين ، وكانما فيه ابعاد وتذكير ، او ندامة وغضب ، ازاء جراة القائد المجازف منذ ما كان قبل اسلامه . فهو يذكره بكل شيء ليهيب به ان ينجو بالمسلمين ولا يضاعف خطورة الموقف بمخاطرة جديدة . وليس هذا البحث الدقيق من وجوهه مما يتسع اليه مثل هذا التعليق بحال .

يمكنك ان تراجع عليه سيرة ابن هشام وتاريخ البلاذري المطبوعين وتجد عليه خلاصة مفيدة في الوافي بالوفيات ج 13 الورقة 28 بمكتبة اكسفورد .

كانت صفاقس – اذ ذاك سنة (471 هـ / 1079 م .) في خمار الهيضة التي صرفتها مصر الفاطمية على افريقية السنية ، وهي ما عانته الدولة الصنهاجية من بلية اغراء أعراب الحجاز باستباحة ملك القيروان ، وهي ما عبر عليه التاريخ بـ « زحفة بني هلال » . وقد انتهى الأمر الى جلاء أمراء صنهاجة عن عاصمة افريقية العربية «القيروان» ولجأوا الى مدينة المهدية ، وتفرقت كلمة افريقية بين امارات هلالية ومقاطعات تنظم شؤونها حسبما أمكنها من نظم جمهورية أو امارة شورية ...

وفي سنة (471 هـ / 1079 م .) التي دخل في آخرها شاعرنا صفاقس مهاجرا كان حمو بن مليل البرغواطي (4) على رئاسة صفاقس مستقلا بتصريف أحوالها وأحوازها . فلا غرابة أن يشعر صاحبنا ابن حمديس بعزلة صفاقس ، وأن تحطم نفسه بهذا التقطع في الوحدة الاسلامية . والعالم الاسلامي أحوج ما يكون للقوة والمنعة اللتين لا تقومان الا على الاتحاد والوحدة التي كان يرجوها شاعرنا لتتمكن من اعطاء الدرس الرادع لهؤلاء المهاجمين المغيرين من النرمان .

---

4) حمو بن مليل البرغواطي ، كان واليا على صفاقس من قبل المعز الصنهاجي حتى ذا ضعف المعز عن مدافعة الاعراب المرسلين من مصر آل به الضعف الى تسليم عاصمة القيروان في ايديهم سنة الارباع (444 هـ) ، ثم فر هو لاجئا الى المهدية عند ولده تميم الذي كان واليا عليها . واستمرت مدينة صفاقس في ولائها للمعز كما استمرت في كفاح مجيد ضد كل محاولة يقوم بها بنو هلال لان تخضع اليهم وتخرج عن طاعة المعز . فلما توفي المعز وستولى تميم مكانه ، آثر حمو ان يستقبل بصفاقس ويبقى على الحياد . وبالفعل اعلن استقلاله بها (سنة 453 هـ) ودام عليه اربعين سنة حتى استرجعها تميم للطاعة سنة (493 هـ / 1100 م) .

وداع الحبيبـــــة :

ومن جهة أخرى فاننا نعرف أن صديقة صباه ورفيقتـــه أيام كفاحه في صقلية قد قرر أهلها وزوجها الهجـرة الـى الحجاز ليخلدوا الى حياة روحية طاهرة بعيدة عن كل شـغب نفسي أو دنيوي .

والظاهر أن معظم المهاجرين عن جزيرة صقلية قد جعلـوا افريقية محطتهم الأولى ، الى كل جهة يقصدونها . فهي الطرف الأقرب لهم من بلاد الاسلام ، ومنها يستأنفون سيرهم برا في قوافل الى المشرق أو المغرب العربييـن .

وانما **يصف** لنا وجده بها ويحدثنا عن نفسه ، في ليلـة رحيلهم . فهو الآن ينتظر ، وهي في جموع القافلة مع أهلها وذويها ومع زوجها الغيور البطـل .

فالصقليون الذين جاؤوا القطر الافريقي لاجئين وقتييـن ريثما يتهيأ اخوانهم لنجدتهم وتخليص وطنهم ، قد رأوا رأي العين اي هول كان قد اغتال افريقية هاته من تقسمها بيـن ملوك الطوائف حتى لم تعد تتماسك أجزاؤهـا الى بعضهـا فضلا عن أن تنجد الطرف الأبعد من صقلية ، التي خرجت عن حوز افريقية الاداري منذ قرن الى حوزة الخلافة الفاطمية بمصر . اذن ، فقد تمخض اليأس المطلق للمهاجرين ، ولا مفر لهم من متابعة الهجرة الى أعمق ما يكون الوجـود الاسلامـي بعدا عن أهوال الصليبييـن .

وصاحبنا انما هو شاعر ومحب ، فلا يتحدث بالتـاريخ والفلسفة ، وانما يتحدث عن مبلغ جمال تلك المهاجرات ذوات الأعين الدامعة والأوجه الصبيحة والانفس الحزينة لتمـزق

جمعهن وتفتق شملهن ، ولا يتمالك أن يهزا بزوج صديقته فالزوج الغيور انما يهتم بتزرير الخدر ، في حين أن المسكينة قد أخلصت لهذا الزوج بحقه الشرعي من جسدها ، انما قلبها ليس في يدها ، وقد بقي عند حبيبها ابن حمديس الذي ينتحي جهة ، منتظرا الفرصة ليقبلها قبلة الوداع :

شموس دهاهن وشك الفراق ... فلبين في القضب الميس
تريق المدامع ، كالساقيات ... من السكر يعثرن بالأكؤس
طوالع نحو غروب تريك ... جسوم الديار بلا أنفس
تزرر صونا عليها الخدور ... فتبكي عيون المها الكنس
وقد زار عذب اللمى في الأقاح ... أجاج الدموع من النرجس
وقامت على قدم فرقة ... اذا وقف العزم لم تجلس
ولم يبق الا انصراف الدجى ... بزهر كواكبه الخنس
ويمحو النهار بكافوره ... من الليل عنبرة الحندس

◆ ✦ ◆

ألا غفلة من رقيب عتيد ... يلاحظنا نظرة الأشوس
فنهدي على عجل قبلة ... الى شفة الرشاء الألعس
غدا يتقطع أقرانهم ... ويتصل السير في البسبس
ويكلأ ذمر على ضامر ... خبية خدر على عرمس
ويصبح من بسليمى اعتنى ... يقلب منها يدي مفلس (5)

هاته قصيدة تدقق لنا أنها قيلت ليلتها وهو ينتظر الفرصة وسنرى أن صاحبته قد مكنته منها ، فحلت ما زرر من خدرها وخرجت اليه على قدها تتلقاه ولهى ، بجسد قد ذهل العقل فيه عن الوجود . وانما نعرف أن قصيدته الثانية التي حدثنا

---

5) القصيدة : 168 . الابيات : 1 ـ 13 .

فيها عن ذلك اللقاء انما عملها بعد اربعة وثلاثين سنة ، فالحادثة قد كمنت فيه بعد يوم المصيبة بالوداع الأخير حتى تنحل عقدة لسانه في محفل الشاب الحسن الصنهاجي سنة (505 هـ / 1111 م .) ليتحدث بقصة شبابه ، وبالليلة الليلاء التي فتحت عليه باب الغربة وأبواب التنقل والهجرة ، فلم يقر له بعدها قرار :

لو رأيت لنا ولهم ظعنا ... وصنيع البين بهم وبنا
لرأيت نشاوى قد سكروا ... بكؤوس نوى ملئت شجنا
ومها نضرت ، ونواظرها ... وصلت دمنا وجفت دمنا
رحلوا فأثار رحيلهم ... من حر ضلوعك ما كمنا
وحسبت سراب تتابعهم ... لججا وركائبهم سفنا
ومها نضرت ونواظرها ... خلقت لنواظرنا فتنا
من كل موادعة نطقت ... بالسر مدامعها علنا
سفرت لوداعك شمس ضحى ... وثنت بقضيب نقي غصنا (6)

وقد أمكننا أن نتبين من ديوانه أنه كان يتصيد خيالها ويتسقط أخبارها . ورأيناه يخيلها الينا ويصورها متنقلة في مراحل الحجاز ، مما بسطناه في كتاب « الحب والجمال في أدب ابن حمديس » (7) .

وهكذا ودعته وسارت في اخلاصها الى زوجها لتقطع مع صديقها كل علاقة أو اتصال في المستقبل . ومن يدري ؟ فلعلها هي التي دبرت هذا التباعد بمركب من الحب والاخلاص

---

6) القصيدة 335 ، الابيات : 1 ـ 8 .

7) فصل الوداع الاخير .

الذي يريد أن يضع حدا لعلاقة محرمة وحب لا طائل تحته ، مع العفة والأخلاق الاسلامية الكريمة . وهكذا تنفذ كل شيء وهكذا قد وافق صاحبنا ، وخضع لذلك القدر المقدر المحكم ، فهو اذن يوادعها ويودع في وداعها حب الصبا ، ويتمحض للعمل بارادتها ، مع احتفاظه بها في خياله : كاعبا شارخا تحبه ويحبها وتخلص الاخلاص الذي لا يعرفه هو الا في طاعتها طاعة عمياء وفي الخضوع لما تدبره وترضاه . ومع ذلك فانها قد خرست ساعة الوداع فلم تجد ما تقوله ، اذ فعلت كل شيء بيديها ، وضد ما يرغب فؤادها ، فكأنما تخاف أن تتكلم فتنطق بما في الفؤاد :

بنفسي من حور المهى غادة لها
فم من شديد الخوف بالصمت ملجم (8)

اذن فقد قرر هو ، اثر هجرتها أن يهاجر بدوره مثلما هاجرت هي ! ولكنه لن يقصد الحجاز أبدا . بالعكس فانه يقصد الأندلس ليكون كلما سار ميلا عن صفاقس يكونان قد تباعدا ميلين !

وما قد قد السير بالطول سيرهم
ولكنما المنقد قلبي المتيم (9)

ولم يجد برا أعظم من الانغماس في الجهاد وتعقب هؤلاء الذين فرقوا عشه وأخلوا جزيرته ، هؤلاء الغرمان الهابطين على البحر المتوسط من ثغرة الفتحة « مجاز جبل طارق »

---

8) القصيدة :284 ، البيت : 19 .

9) نفس القصيدة ، البيت : 15 .

فلم يتمكن المسلمون من سد المجاز بين الأندلس والمغرب لتطلع السيل المنهمر من ذلك البشر المتذائب .

وبالفعل رأينا صاحبنا عبد الجبار بن حمديس يتجهز من جديد الى الأندلس حيث تتصادم - لعصرها - على ظهرها الواسع ، قوات المسيحية والاسلام ، ليركب مع فرقة « بني الثغر » التي أعيد تشكيلها وتجهيزها .

وهكذا يودع أهله : زوجته وبناته وولده الرضيع الذي وضعته زوجته في بلدة صفاقس اذ وصلت حاملا به ، فقد اسماه عمر ، وودع أخته وعمته العروب ، وودع صهره علي ابن أبي الدار الذي يصبح رجل العائلة وكفيلها .

وقد وصف موقف وداعه لزوجته الشابة ، التي تقوم أمها على زينتها وتعطيرها لتتقدم لوداعه كما لو كانت تتقدم ليلة عرسه ... لتشد عزمه وتعجل أوبته . ولكن الشابة غلبتها أحاسيسها ، فلم يمكنها أن تتكتم ، فانها لم تكد تصدق أنها استرجعته من أهوال الدفاع عن صقلية حتى تضطر لتركه يذهب لمهاجمة هؤلاء النصارى على أرض الأندلس ، فهي تبكي وتلتصق به وتعانقه . ولكن صاحبنا كان قد عزم أمره ، فلا بد له من تبريد لوعته ... ولو بالترامي على الموت ، بعد تلك المهمة المقهورة عن الوطن :

فثرت وثارت معي همة ... قيامي لها نازعا من قعود
وما وهنت عزمتي لدة ... تنبه في الغمر عجز البليد
ولا طفلة العيش وهنانة ... أروح بنفحة مسك واعود
تودع للبين كفا بكف ... ونحرا بنحر وجيدا بجيد
ومن يطلب المجد ينزل الى ... قرى النهر عن نهد عذراء رود

ويرمي عن الخوف عزما بعزم وليلا بليل وبيدا ببيد (10)

وهو في قصيدة أخرى يحدثنا بسر ثورته تلك ، فان زوجته قد حاولت ردعه في آخر لحظة وانها قد صارحته أن فؤادها لا يحدثها عن هاته الرحلة بخير ، فهي جزوعة أن تموت دون أن تراه مرة أخرى بعدها . ولكن شاعرنا قد كان مغمورا في احساس آخر وفي ألم لن يبقى له مجالا لتلك الهواجس ، ولا هو في الحال التي تمكنه من التأثر برقائق أحاديث القلوب واستشرافات الغيوب ... فهو في موقفه هذا يذكر قلبه وقلبها ، ولا يحس بغير القهر الذي يعتلج في نفسه ، خليطا بين الرجولة المقهورة والوطنية المعتدى عليها والنفس المتألمة لذياك التفرق في الشمل من كل ما يهز ويثير :

ومنكرة عني زماعا عزمته عدوك يا هذي الى حبيب
جرى دمعها والكحل فيه كأنه جمان بماء اللازورد مشوب
وقالت : غرابيب درجن ببينه ستستدرج الأعوام وهو غريب
فما كان الا ما قضى بالها به
فهل كان عنها الغيب ليس يغيب ؟ (11)

وفي قصيدة اخرى يذكر شعوره نحو أطفاله الذين لم يأخذ منهم الا بكره ، بينما أختاه الصغيرتان والوليد قد بقوا في حضانة أمهم . فاسمعه يصور احساسه :

فقل لأناس عرسوا في صفاقس لطائر قلبي في معرسكم وكر
وفرخ صغير لا نهوض لمثله يراطن أشكالا ملاقطها صفر

---

10) القصيدة : 84 « انشودة الطريد » ، الابيات : 7 ، 12 .

11) القصيدة 30 « انشودة القفار » . الابيات : 10 ـ 13 .

اذا ما رأى في الجو ظل محلق ترنم واهتزت قوادمه العشر
يظن اباه واقعا . فاذا أبى عليه وقوعا شب في قلبه الجمر
يلذ لعيني أن ترى عينه وأن يلف بنحري في التلاقي له نحر

أحن الى أوطانكم وكأنما
ألاقي بها عمر الصبا سقي العصر

ولم أر أرضا مثل أرضكم التي
يقبل ذيل القصر في شطها البحر(12)

وعلى كل حال فاننا ننبه هنا أنه قد دخل افريقية جنديا وخرج من رحلته الأولى هاته جنديا ، ولكنه كان قد بدأ حياته الشعرية ، فمدح الملك تميم بن المعز الصنهاجي بقصيد لم نظفر به ، فهو قد نزل مدينة المهدية أيضا ومدح ملكها تميم في هجرته الأولى هاته الى افريقية .

فهو قد ترك صفاقس الثغر التجاري الى الثغر المنيع المهدية التي أصبحت قاعدة الدولة الصنهاجية ومدح ملكها تميم بن المعز (عام 471/1079) للثامنة عشر سنة من ملكه ، وشاعرنا عبد الجبار في مجد شبابه ضمن فرقة « بني الثغر » فهي تجتاز المهدية مرور الطيف ، وقصيدته تلك أو قصائده في تميم لم نظفر بها بعد في ديوانه أو غيرها من ملتقطات أدبه ولعلها من جملة الأدب العربي الكثير الذي أكله الدهر . وانما وجدنا خبرها في ديوانه فيما نص لابن الحفيد الثالث ، وهو حسن بن علي بن يحيى بن المعز بن باديس آخر عقد بني زيري من ملوك صنهاجة ، وشاعرنا في أواخر عقد الثمانين

---

12) القصيدة 149 . الابيات : 13 ـ 19 . وتقبيل البحر لذيل القصر على الشاطىء : كناية المد الذي يظهر في شاطىء صفاقس .

من عمره ، بعد مضي فوق النصف قرن من هبوطه على جده ، اذ يقولـــه :

أنا مـن أهدى لك ممتدحـا غـررا أغليت لهـا ثمنـــا
وقديم الـود جديـد الحمـد هنـاك أفـــوه بـه وهنـــا
ومدحت غلاما ـ جد أبيـك ـ وها أنا ذا شيخا يفنا (13)

فأغلب الظن أنه قد ركب البحر ، ولعله ركبـه من ثغـر المهدية مع فرقة « بني الثغر » فهل تحسبه ركب في خفـارة أسطول ميورقة الأندلسية ؟ فقد كانت ورثت الأسطول الاموي القديم وجددت منه ، وكان لها صولة ودولة في البحر ، برغم كل شيء وكان للمهدية أسطول حربي تعيش في ظله الا أنه لم يملك سلطان الحوض الغربي للبحر المتوسط ، اللهـم أن يخفر الشواني التجارية على ما نعرفه حتى اليوم عند قيـام الحـروب البحرية التي تتكافأ فيها القوات ، فتصبح الرحلات فـي قوافل من السفن يخرج بها خفير من القوات البحريـة . وكان لدولة بجاية أسطول أيضا . على أن الانتقال في الفلك التي تساير الشواطىء قد كان معمولا به أيضا . وعلى كل حال فقد ركب البحر الى الأندلس ، إذ لم ينص على شيء مـن وسائل نقل تلك الفرقة « بني الثغـر » التي تخـرج برسـم الجهـــاد .

---

13) القصيـدة 335 : الابيات : 59 ـ 61 .

في الاندلس

دخل عبد الجبار ابن حمديس الأندلس آتيا من افريقية سنة (472 هـ / 1080 م) وهو في الـ 25 من ربيع عمره .

وكان مصاحبا لفرقته « بني الثغر » . وانما نعرف أنه قد صحب معه ابنه البكر « بكرا » الذي كان صبيا لم يبلغ الحلم ، وسنرى عواطف الأبوة في شاعرنا قد كانت فياضة ، لا تقل عن وطنيته ولا عن عواطف حب الشباب فيه . ومع ذلك فان أخذ ولد صغير من أحضان أمه المستقرة ليتطوح به في مثل هذا التقلب في المهاجرة والمغامرة ... يعد من غرائب شاعرنا وشذوذاته التي يتفرد بها . ولعل عواطفه الشاعرة قد أبت عليه أن لا يأنس ببعض من تكاليف العائلة ، فاختار لنفسه أشق المتكاليف ، من العناية بصبي صغير يربيه ، بين اخوانه من فرقة المجاهدين « بني الثغر » .

وهاته الغريبة قد رأيت نظيرها في حياتي ، فقد هز نفسي ـ وأنا في بلدة فوشيكيو من أعمال الطوسكانة ببلاد ايطاليا ـ أن رأيت سنة 1944 م . على مدفع ضخم صبيا صغيرا يلبس كسوة الماني لا يتجاوز الخامسة في التقدير . فهو يلعب فوق آلة الموت ولم أتمالك نفسي أن تدخلت وسألت ، فاذا والده مرتاح للنوم تحت الآلة ، فهم في حراسة

المؤخرة ، والأب قد استباح لنفسه أن يصحب معه ابنه الصغير من بلاد النمسا . ويمتاز هذا الصبي عن ولد ابن حمديس – بأن أمه النمساوية ماتت بقنابل العدو ، فاستصحب الأب ابنه الفريد ... وها هما – الأب والابن – في ساقة الجيش على مسافة من المعمعة . بينما عبد الجبار بن حمديس قد أخذ ولده من أحضان امه ويمم به المعمعة البعيدة، ليحارب الذين امتلكوا وطنه ويهاجمهم على الحدود الأخرى من البلاد .

ومن يحدد نزوات البشر وخواطرهم ؟ فلعل الأم نفسها قد سهلت على الأب أن يأخذ صبيه بكرا معه ، ما دامت ترى نفسها محجوبة عن أن تصحبه ، فهو عهدها اليه ، وهو بعضها الذي سيصحبه .

والغريبة من صحبة الطفل لأبيه في المعسكر قد جعلت رفاقه يلقبونه « ابو بكر » فاننا نجده مشتهرا بالأندلس بذلك الاسم « أبو بكر عبد الجبار بن حمديس » .

وابن حمديس – شاعرنا – قد كان في فجر حياته الأدبية ، فلم يكن اسمه على راس قائمة نبغاء الأدب العربي ، ولا اشتهر في بلاطات الملوك .

وكان الأندلس قد أتم صبغه باللون العربي الاسلامي ، ولكنه أصبح في غمرة الانقسام العربي يتخبط في مفاسد انحلال الدولة الأموية ، حيث تقاسمتها المطامع والأهواء .

وكان الفرنجة والقوط والنورمان مازالوا بين الايمان والشك في ذهاب منعتها ، فهم يوالون قضم ما سمحت به الظروف

والمصادفات ، ويوالون سبر ما هي عليه من وهن لا يكاد يصدقه أجوار المسلمين هنـــاك .

بينما اليهود بالأندلس قد أصبح لهم المناصب والصولة في قلب تلك البلاطات المتناثرة والنظم المتعاكسة ، التي تقوم في دويلات كان انفراسها على قاعدة السيادة والوحدة الاسلامية ، فلم يبق فيها من تلك السيادة والعصبية غير ذهاء رقيق .

بينما ابن حمديس ـ في فرقة « بني الثغـر » ـ قـد أم الأندلس بنية خالصة للجهاد ... خالصة من كل دخيلـة أو التواء سياسي . وهو لم يكـن يفكـر في استثمـار مواهبـه الشعرية ولا تصور أن يتمرس بحياة التدخـل في شـؤون البلاطات ، على ما هي عليه . والا تفقه فن فرض نفسه علـى الملوك المقلقلين المنتفخين مطامع . وفن فرض النفس ، قليل من حذقه ، ونادر التوفق في صعابه والفوز من مهالكـه .

مصائب فـي الاغتـــراب

وقد اصطدم ابن حمديس وصحبه ، باعلان ملك الأندلس المعتمد بن عباد عقد المهادنـة مع طاغيـة النصـارى وملـك قسطيلية وليون . بحيث نجدهم عاطلين في الملاجىء والثكنات التي خزنوا فيها ... وصاحبنا معهم ، الى ست سنـوات ، لا يجاهد ولا يقوم بعمل جدي ، غير أن يحيا حياة لم يكـن هؤلاء المجاهدون يتصورونها في المنام ، وقد أجملها لنا ابـن حمديس في مثل قولـه :

بدار اغتراب كـأن الحيـــاة لذكر الغريب بها ناسيـه (1)

---

1) القصيدة 354 ، البيت : 14 .

ويعطينا ديوانه أخبارا غريبة عن تفاصيل ما لقي من أسواء منوعة تجمع بين فجائع القلب والجسد .

ناهيك بمن ترك جميع خيراته الحضرية التي اعتادها في وطنه ؛ وترك جميع ما عاجر به ؛ لأهله في صفاقس ؛ ليأتي الأندلس قصد محاربة اعداء العروبة والاسلام ، الصليبيين الذين اكتسحوا وطنه ، فاذا به يقصر ويلزم بحياة البطالة والايواء في الثكنات ، تحت جراية مقترة وسكنى لا عهد له بها ... بينما أهله في غربتهم يأوون أيتام المهاجرين ويوسعون عليهم ، وهو يحتاج هنا للضروريات من شروط الصحة والسكنى والنظافة .

وقد خلف لنا مقاطيع عظيمة الشأن في وصف ما تحمله من تجريدات النمل وعساكر البق التي تغزوه كل ليلة ثم تعود منتفخة البطون من دمه الذي كان يود أن يجريه في سبيل الصالح العام والشرف الوطني . فاذا به يسفك اعتباطا ووساخة مسكن ، لا سلطان له على تطهيره :

يا ليل هل لصباحي فيك اشراق
فقد نفى النوم عن عيني ايراق

عساكر البق نحوي فيك زاحفة
كأنما بث وسط البيت سماق

من كل طاغية الخرطوم سارية
كان لسعتها بالنار احراق (2)

---

2) القصيدة : 223 ، الابيات : 1 ـ 3 .

ثم تراها مع فصل الربيع تتعاون مع اخواتها من الحشرات في مسكنهم الموحـــش :

نومي على ظهر الفراش منغص والليل فيه زيـادة لا تنقص
من عاديات كالذئـاب تذاعبت وسرت على عجل فما تتربص
جعلت دمي خمرا تداوم شربه مسترخصات منه ما لا يرخص
فتـرى البعـوض مغنيـا بربابـــه
والبـق تشرب والبراغث ترقص (3)

فيا لها من جوقة لا تسر ولا تبر . والمصيبة بجميع هـذه الحشرات قد تصبح تافهة اذا قيست بمصيبة الهوام السامة ، تسكن معهم في البيت وتدب عليهم عندما ينامون :

عـدو مـع الانســان يسكـن بيتـــه
فكيف يوالي رقدة يستطيبهـا ؟ (4)

فقد ابتلوا بالعقارب تساكنهم ، فأذاقتهم الأمرين . فوصفها على غير ما قافية ، وأقام فيها الألغاز المنكـرة :

وذات خلق تريب الخلـق صورتهـا
فكـل ناظـر عيـن ليـس يألفهـــا
كـان شوكـــة عنـاب بمبضعهـــا
يجرع السـم منها من يصادفهـا (5)

وقد خصها في ديوانه بقصيدة وصفها فيها وصف الحكيم المجرب . وصورها لنا أيضا منعكسة على نفس الفقيه الـذي

---

3) القصيدة : 188 ، الابيات : 1 ـ 4 .
4) القصيدة : 32 ، البيت : 21 .
5) القصيدة:218 . البيتان : 1 ـ 2 .

يؤم الفرقة « بني الثغر » وقد نسي توكله وقام لكفاحها الذي اعتاده وبرع فيه :

تذيق زعاف السم من وخز ابره
اذا لسبت ماذا يلاقي لسيبها

يجمد منها مائع السم بغتة
نجيع قلوب في الضلوع يذيبها

لها سقطة في الليل مؤذنة بها
اذا وجبت راع القلوب وجيبها

ونقر خفيف في الشخوص كأنه
بكل مكان ينتحيه رقيبها

وتال من القرآن « قل لن يصيبنا »
وقد حان من زهر النجوم غروبها

يقول ـ وسقف البيت يحذفه بها ـ
(حصاة الردى يا ويح نفس تصيبها)

فصب عليها نعله فتكسرت
من اليبس ـ تكسير الزجاج ـ حبوبها (6)

ثم أتم عليهم التعفن نعمه ، فرأيناهم يصابون بالرمد ورأينا ابن حمديس ـ على نشاطه الأدبي ـ قد خص مرضه الذي أصيبت به عيناه بقصيدة تبين لنا ما لقيه من آلام وأوجاع :

أشكو الى الله ما قاسيت من رمد
مواصل كرب آصالي بأسحاري

---

6) القصيدة : 32 ، الابيات : 3 ، 11 ـ 13 ، 18 ـ 20 .

كـأن حشـو جفونـي عند سورتـه
جيش من النمل في جنح الدجى ساري
كأنه ـ للقذى والدمع ـ في وحـل
فخلعـه أرجـلا منهـا بـاضـرار
كأن أوجـاع قلبـي فـي مطاعنـة
بالشوك ما بين أشفاري وأشفاري
كم ليلة بت صفـرا من كـراي بهـا
ومـن مخيلـة صبـح ذات أسفـار
يشكو لجفنـي جفنـي مثـل علتـه
كالضيم يقسم بين الجار والجار (7)

وفوق كل ما أصيب به من هاته المصائب المادية والمرضية ، كانت أخبار السوء تصل من صقلية الى الأندلس المتنعمة في هدنتهـا ... مما ابتلي به المسلمون هناك من ضيم ومن سياسة سادة قد جاؤوا غير عازمين على الرجوع أبدا . مما كان يقض مضاجع هؤلاء الأبطال ويعكر عليهم كل راحة نفـس . لقـد جاؤوا ليسدوا ثغرة الاتصال بالزحف الوارد من البحر المحيط ، لعلهم يتمكنون من تخفيف الضغط على اخوانهم في قلب البحر المتوسط . وهو تدبير رئيسي حاسم لو أن ملوك الأندلس قـد أحسنوا هضمه والعمل به . ولكن أبطال صقلية قد القى بهم اخوانهم في ثكنات تأويهم ويموتون فيها حسرة ، لسياسـة المهادنة التي دبرها أعداؤهم وقضت على ما كانوا يرتجون .

ثم ان اخبار جزيرة صقلية قد كـانت فاجعـة من حيث سياسة القمع والتطميع التي جرى عليها المحتلون ، فانقسم

---

7) القصيدة : 128 ، الابيات : 1 ـ 4 ، 7 ، 13 .

المسلمون الباقون ، على أنفسهم ، وساد الجزيرة جو من الخنوع والذلة المؤسسة .

وحتى صفاقس قد أرسلت بأخبار السوء الى ابن حمديس ليزداد جحيمه تجهما ومضاضة . فان أم بنيه قد أسلمت الروح وبقي بنتاه وولده يتامى عند أمها ، خالته . ونجد له في موت زوجته أغرب عمل فني جادت به قريحته الشاعرة اذ أن قصيدته فيها لا نعرف لها نظيرا ، فيما اختاره لها من الناحية التي ينشئها منها . فقد أعرض عن أن يسبكها على لسان زوج وفي لزوجته أو صديق وفي لحبيبته أو غير ذلك من أوجه النظر المتعارفة والتي قد تتبادر للمتمحل .

أنشأ مرثيته على لسان ابنه البكر المتغرب صحبته . وهذا اغراب شعري له قيمته في أن ينطق صبيا لم تكد تناط عنه التمائم . ولكنه يزيد الاغراب بأن يجعل الولد انما يخاطب بها أخاه الرضيع على صدر الجثة الهالكة ، والراثي بعيد هالع ، والمنعي اليه يدب على الصدر الذي اعهد فيه الغذاء والحيوية والحرارة والحنان .

فهذا وضع شعري مدهش تفتق للقريحة الملهمة وبقي للأجيال معلم نبوغ يشهد ولا يسهل الاقدام على معارضته أو محاذاته . اذ يقول الولد الراثي لأمّه :

من توسدت في حشايا حشاها
وارتدى اللحم فيه والجلد عظمي
شرح الله صدرها لي فأشهى
ما اليها احتضان جسمي وضمي
بحنان كانها في رضاعي
أم سقب درت عليه بشم

الى أن يقول على لسان أخيه الرضيع ، ينادي أمه ويصف أخته حول الجثة :

أمتا هل سمعتني من قريب
حيث لي في النياح صرخة قرم ؟

كنت أخشى عليك ما أنت فيه لو تخيلت في مصابك همي
كم خيال يبيت يمسح عطفي لك يا أمتا ويهتف باسمي
وبنات عليك منتحبات بخدود مخددات بلطم
بتن يمسحن منك وجها كريما بوجوه من المصيبة قتم (8)

فهذا ابتكار في الاستعراض ، وفي ناحية النظر للحادثة العادية المتكررة على وجه الزمان . ولا نعتقد أن قد وفق الى بابه شاعر غيره في العربية من قبله ، ولم نعهد شاعرا غيره سار عليه من بعده ، لا في العربية ولا في غيرها ، فأي عواطف قد كانت الأبوة تجيش بها في صدره نحو أبنائه اليتمين الذين ليس لهم بعد أمهم غير عمتهم : اخته زوجة ابن عمه الحكيم علي بن أبي الدا ر. وحتى الحكيم علي قد كان شرق الى مصر ! فكيف كان يحس عليهم في غربته وفي تغربهم .

لم يحدثنا مؤرخوه عن شيء من ذلك وانما هو ديوانه الذي يمكن استنطاقه . ففيه شخصيته والادب مجال تلك الشخصية ، بما فيها من ميول ونزعات وعواطف ، وبما فيها من ألم ومجد ... حتى يجد فيها الانسان مرآة يرى فيها من الأنفس مثلما قد يكون منطويا في نفسه ... كما يعرفها وكما

---

8) القصيدة : 321 ، الابيات : 20 ، 22 ، 23 ، 28 ، ـ 32 .

يمكن أن يعرفها وكما يتحاشى أن يعرفه في نفسه أو يتورط فيه . ثم ان الانسان ـ من وراء كل تلك الحالات المحبوبة لديه والمخيفة له ـ يجد من استعراضها اللذة الأدبية التي هي سر خلود الأدب ، بما فيه من بؤس وترف ، على حد سواء ، لأن البؤس والترف هما ملح الحياة وسكرها ، ليعطياها ـ بالتناوب ـ الطعم الذي يثير الشهية ويمتع الذوق .

بينما بؤس غربته تلك قد كان مرارة صرفة لا يروحها الا تناوب المرهقات من نحو ما وصف .

وهكذا قضى ست سنوات موحشة بين البق والبراغيث والعقارب وعفونات الرمد ... حتى رأيناه يرجع الى حضيرة الأدب . بعد أن يئس وسلى عن رغبة الانتقام بنفسه من مستأسري وطنه صقلية اذ عرف أنه ليس من عمل الفرد ولا من كسبه ، وأن لا بد من تكوين الجو العام ليعتزم المسلمون الدفاع عن كيانهم ضد المعتدين ، ومناصرة بعضهم بعضا واستبقاء ما لهم ، ولو كان وراء البحار .

في بـــلاط الاندلـــس

مائة دينار ذهبي قد وصلت من المعتمد بن عباد ملك الأندلس الى الشاعر المهاجر ، وهو في مدينة اشبيلية (Sevelia) عاصمة بني عباد ، مع بطاقة اذن لمقابلة يتقدم فيها الشاعر الى الملك الذي كان في مدينة قرطبة عاصمة الخلافة الأموية القديمة بالأندلس .

كان ذلك صباح يوم الأحد غرة شهر رجب الأصب (477 هـ/ 4 نوفمبر 1084 م) فلم يكد يصل وقت الزوال من الغد يوم الاثنين حتى كان قد تجهز مع صديقين اثنين وخرجوا قاصدين قرطبة على جبل الشرف سالكين بين قراه المتقاربة النزهة ، حتى عرجوا على مدينة قرمونة،ثم اتجهوا شمالا حتى جازوا القنطرة على الوادي الكبير ، وكان العام باكرا وقد اتسع الوادي وملأ مجراه زاخرا عرما . فساروا على الطريق الرئيسي شمالي الوادي ، الى أن بلغوا « مدينة الداخل » قرطبة . بحيث قطعوا مائتي ك . م . في ثلاثة أيام ، فقد أصبح يوم الجمعة في العاصمة القديمة يتهيأ لكي يلاقي الملك المعتمد ، النازل في قصور الخلافة الأموية بعد أن رمم منها وأعاد لها نضاراتها ، اثر ما استلمها من أيدي بني جهور . وبالفعل فقد ضرب اليه ميقات هذا اللقاء ، بعد صلاة الجمعة .

مفاجـــاة خائبـــــة :

كانت المدينة في تجمع وتفرق لأقاويل غريبة متضاربـــة حتى رجال البلاط وخدام القصر قد شكوا في أن يتمكن الملك من لقاء الشاعر الذي استقدمه ، اللهم أن يعين له وقتا من السهـــرة .

فلقد وصل في فجر يومها الأمير أبو خالد يزيد (1) فـــي كوكبة من الفرسان المدججين ، يحرسون الأسير العظيم ابـــن عمار الذي ائتمر مع الثورة وأعلن شق عصا الطاعة ، بعد أن رفعه المعتمد من مرتبة الشاعر والمجالس الى مرتبة المستشار ، ثم مرتبة الوزير المعتمد . ثم زاد به فقلده امارة طـــرف مـــن المملكة ، فاذا به يثور ويعلن الانفصال والمشاقـــة .

وها هو المعتمد قد تمكن من اشترائه بالمال ممن حبك لـــه الحيلة وأخذه باليد ... وها هو قد جاء به الراضي بالله يزيـــد من شقورة مكبلا بالحديد ، فأدخله القصر . فالملك يستنطـــق أسيره الخائن ويكتنه ما وراءه من مؤسسات الجريمة ... ثم استدعى الفرسان من جديد وضوعف الحرس ، فعسكروا في الرحاب الوسيعة أمام أبواب البساتين لقصر الخلافة القديمة في عددهم الكاملة ودروعهم المعدنية ، على أهبة السفر الـــى حيث يجب .

وكان وجود الفرسان بتهيئهم الكامل ، مدعاة لتجمع الرعاع الذين اعتادوا الانقلابات والأحـــداث من كـــل نـــوع فيقبلـــون للتفرج عليهـــا .

---

1) ابو خالد يزيد : هو اصغر اولاد الملك من زوجته « السيـــدة » الرميكية . وقد لقب « الراضي باللـــه » .

ومر الوقت وثقلت الساعات على (المتفرجين) والمنتظرين على اختلاف مصالحهم ونزواتهم واعقولهم ، فتبدلوا المرات ولم يخرج الأسير . وابن حمديس أشوق منهم جميعا لخروجه ، وان كان لا يهمه منه الا اخلاء الملك لملاقاته .

وجيء للفرسان المعسكرين في تعبئتهم الكاملة بطعام العشاء فتفرق الناس ، اذ داخلهم اليأس من خروجه ، ودخل على الجميع دهمة الظلام ، وابن حمديس مع صحبه يتلقفون الأقاويل من هذا وذاك عن انشغال الملك بابن عمار ، وعن لقائه مع السيدة الكبرى ، وأنه أنكر امامها ان يكون قد قال فيها قصيدته التي ذاعت عنه في هجوها وهجو بنيها الأمراء :

تخيرتها من بنات الهجان رميكية لا تساوي اعقالا
فجاءت بكل قصير الحجال هجين النجارين : عمًّا وخالا

ولكن موقف شق عصا الطاعة واعلان تقطيع أوصال الاسلام والوحدة السياسية ... قد كانت فوق كل انكار .

وكانت أقاصيص الخارجين من القصر وتعاليق القرطبيين الذين اعتادوا حوادث الانقلابات والخيانة ، واعتاد خيالهم استنتاج النكتة واكتناه الملهاة والموعظة ، وكلمة المجازفة المصرورة اعلى القصد ... كانت غريبة وهائلة . وكأنما عقولهم قد نسيت أنها تتناول بشرا يشعرون ويحسون ، فهم لا يرحمون ، أبطالها ، وكأنهم ـ اعلى السنهم ـ أبطال خرافيون وأشخاص رواية ، لن يقصد بمباهجهم وأحزانهم الا التفريج على أنفس المتفرجين ، بتحريك نفوسهم من خمولها . وكان ابن عمار ـ اذ وقع في براثن الأسر ـ لم يعد الا ذاتية مسرحية يتحدث بها وبما تعانيه ، بتهويل وتنويه ، فلن

يثير شيئا من أعصاب النجدة أو الرحمة في القوم ، وانما يتبسطون بها جميعا على السواء ، خيرها وشرها . المهتم لغرابتها والمستزيد من أعاجيبها .

وأخيرا جاءت أخبار جديدة ، وفيها شيء جديد من الاثبات أن ابن عمار قد خرج من القصر دون حرس ولا خفراء من هذا الجند .

وقد أسقط هذا الخبر جميع ما كان يتهيأ اليه شاعونا من خطة اللقاء . اذ كان الملك المعتمد بن عباد قد بارح القصر وبارح مدينة قرطبة . فهل ذهبت أتعاب الرحلة هباء منثورا؟

وبقي ابن حمديس بين المكذب والمصدق ، فلم يكن يتوقع شيئا مما قد قيل ، وفوق ذلك فان الفرسان مازالوا ماثلين ، على أهبة مصاحبة الأسير فهل هذا كله كذب سياسي وخداع؟

لقد حدث أكارم الحجاب بأن المدينة قد ألقيت أزمتها الى ابن الملك ، يتولاها ، وأن المعتمد قد ركب (طيارة) في النهر مصحوبا بالسيدة الكبرى وثلاثة من أبنائها الأمراء ، هم جميع حرس ابن عمار الأسير العظيم . فانحدرت الطيارة بهم منذ الغروب مع تيار الوادي ، الى قصور بني عباد في اشبيلية . وربما قطعوا الآن نصف الطريق ، وسيكونون مع جميع الحاشية التي لحقتهم في طيارات خفيفة أخرى ، صباح الأحد على الموعد هناك !

فهل يجب أن يصدق كل هذا ؟ وهل كان كل هذا التهيؤ والمواعيد والانتظار ... حبكة مسرحية قد ستر وراءها الملك رحلته ، لتكون آمنة مطمئنة مصونة من كل عين او دسيسة أو نصير متهور . قد ضربت على أعينهم غشاوة تضمن لهم الخيبة ، ويتفادى بها الملك كل مؤامرة مفروضة .

ولكن ابن حمديس – في الحقيقة – لم يسلم بشيء من ذلك أبدا : بينما هناك آخر قد جاء بالخبر على صورة أخرى ، نقلا عن مملوك ، حدثه بأن أم الربيع هي التي دبرت كل شيء ، وهي التي آثرت أن تحرس الاسير ، بنفسها وبنيها ، حتى لا يشعر غيرهم بشيء ، الا بعد فوات كل شيء . حتى تصل به الى الأقبية الداخلية في قصرها الخاص في اشبيلية ما دام الملك لا يرى قتل الثعبان الخطر . ومع ذلك فقد جاراها الملك في تدبيرها ، الذي يماشي رغبته ، فأخرجته معها منذ ساعات على ضوء الشموع بين الجواري يقدنه ويتضاحكن عليه ، حتى ركبوا به الطيارة ...

ثم لم تبق المسألة مجرد أقاويل ، فلقد أصبحت واقعا منظورا . اذ رأى ابن حمديس أمير الكوكبة ، يأذن الفرسان بالانسحاب ليبيتوا في مضاربهم ، فخلت الساحة ، وبات ابن حمديس ضيفا على القصر في وثير الفرش والتكريم ، بينما كان يلعنها من مصادفة . وقدمت له ألذ ألوان الطعام وأشهى المعقبات ، فنعم صاحباه ، في حين أن كان هو يسد جوعه بعقل هائم في استشراف عواقب هذا التأجيل الغريب الملحتم . فلقد كدر ابن عمار (2) كل شيء . ومازال الشاعر ضرة للشاعر يزاحمه ويبلوه في كل بلاط .

---

2) ذو الوزارتين ابو بكر بن عمار ، المهري ، الشاعر الشلبي الشهير . ولد سنة 422 هـ فهو اكبر من ابن حمديس بربع قرن كامل . وهو اشهر الشعراء الذين بلغوا الامارة بادبهم في الاندلس ، وهو زميل وقرين لابن زيدون الشاعر الكاتب . حتى قتله المعتمد بنفسه سنة 477 هـ في محبسه باشبيلية اثر استلامه لورقة كتبها بنفسه ، ثم اقر ايضا .
انظر ترجمته مفصلة في « نفح الطيب » . وقد اعتمدنا ما كتبه ابن عبد الباري « الحلة السيرى » خطية الجمعية الاسيوية . وقد نشر منها دوزي في نصوصه عن « بني عباد ملوك الاندلس » .

وفي الصباح نفض عن نفسه غبار خيبته من تلك الرحلة التي جاءها مؤمنا بالنجاح . فقام راجعا الى اشبيلية والمكلفون بتضييفه بالقصر يجلونه ويقدمون له مراسم التشريف والاكبار وهو لا يرى منها الا خيبة الأمل ، والحظ العاثر الذي لن تقوم له قائمة . بينما صاحباه قد هزتهما النخوة لما يلقيانه معه من اكبار ، وقد أخذا عنه الزاد الملكي الذي أرفقوهم به ، فرحين غانمين .

شؤم جديد :

والحظ العاثر لا يكتفي بأن يكون كاملا . فالنحس ، لا بد أن يستتم ذنبه الى جسمه الثقيل ، فان ابن حمديس ما كاد يصل اشبيلية حتى وجد النعي ينتظره . فقد وصل أناس من صقلية بنعي أبيه ابي بكر بن حمديس الذي بقي في جزيرة صقلية وتحمل حكم النرمان عليه ، يستبقي أملاك بني حمديس ريثما يعود العرب لتخليص الجزيرة التي خلدت لهم منذ قرنين خليا :

أتاني بدار النوى نعيه ... فيا روعة السمع بالداهيه
فحمر ما أبيض من عبرتي ... وبيض لمتي الداجيه
بدار اغتراب كأن الحياة ... لذكر الغريب بها ناسيه
مضى وهو مني أخو حسرة ... تمازج أنفاسه الراقيه
واني لذو حزن بعده ... شؤون الدموع له دامیه (3)

في جنة المعتمد :

ومهما تكن نفس ابن حمديس ، فقد بادر الى كتابة رقعة لملك الأندلس ، بعد أن استتب بالملك المقام في اشبيلية

---

3) القصيدة 354 ، الابيات : 12 ـ 14 ، 28 ، 30 .

عاصمته فقص فيها خبر رحلته الخائبة ... حتى ختم شعرها بقوله :

رجعت واصحابي الى ما يُجِدّهُ
علاك . فوقع ممسكا أو مصرحا (4)

ومع ذلك فلم يتيسر له لقاء الملك « حتى قنطت لخيبتي مع فرط تعبي ... واني لكذلك ليلة من الليالي ، في منزلي ، اذ بغلام ومعه شمعة ومركوب . فقال لي : أجب السلطان ...! » وذلك أواخر شهر رجب (سنة 477 هـ/اوائل ديسمبر 1084 م)

وكان اللقاء كما قدره ابن حمديس ، في سهرة الملك وخلوته. وقد تقارضا فيها الشعر وتساجلا ، مما نجد منه في ديوانه تحت رقم 306 ، فتراهما في ليلة ليلاء منتصف شهر دجنبر 1084 م وقد أغلقت النوافذ اتقاء البرد « فأجلسني اعلى مرتبة (منك) وقال لي : افتح الطاق ، الذي يليك » ونرى صاحبنا يستنجد عبقريته فيما يقارضه ، ونرى أدبه الواقعي يجعله في ارتجالاته يعرض برمد عينيه . فيهتز الملك لبداهته وصدق أدبه ، ولتعبيره وصراحته ، وملاءمته للحال . بحيث يخرج شاعرنا من لدنه « بجائزة سنية وقد ألزمني خدمته » .

لم يخطر لنا ـ أبدا ـ أن نسرد تاريخ الأندلس ضمن هاته الترجمة الخاصة والا ، فان ديوان صاحبنا تاريخ شعري ، قد فصل من الأحداث التي مرت به الدقائق التي خفيت على المؤرخين والنكت الجليلة ، مما قد ندت عن تقييدات المقيدين . كما تراه في ترجمة الرجال الذين عرض لهم في ديوانه ، وعنينا نحن أن نضيف للمعلومات المدونة عنهم ، في مختلف التواريخ

4) انظر المقطوع وتتويجه في ديوانه تحت رقم 80 . البيت : 7 .

والتراجم ما أمكننا حزره مما امتاز بها ديوانه . ففيه مما يفيد التاريخ الكثير الطيب . ولنقصر حديثنا هنا عن ترجمته .

أعطيـــات الشاعر :

فقد لزم ابن حمديس بلاط المعتمد بن عباد ، الى آخر ساعة من ذلك المجد . وكانت العطايا الملكية جليلة وجزيلة في ذلك العصر الذي كانت فيه خزينة الدولة مختلطة بخزانة الملك ! وفي الحقيقة فان وظيفة شاعرنا هذا لم تكن قاصرة على مجرد تسلية الملك ومدحه ، بل هي تسمو الى اذاعة القوة والكفاءة في الشعب وتعميم الحزم والمجد ، وتعمل لتوطيد أركان الدولة ، مما يفتح له اليوم اعتمادات خاصة وتقام بها المصالح المشيدة وتنظم المرتبات الضخمة ... فضلا عن الصندوق الاسود . وبالفعل فقد رأينا هاته العطايا تبدأ بمائة دينار ذهبية لتتدرج الى المركبات الملكية والغلمان والجواري بحيث توفر في خدمته الخير الجزيل في اشبيلية هاته :

بدلت من معشري الأدنين معشرها
لا فرق الله فيما بيننا أبدا

وما سددت سبيلي عن لقائهم
لكن جعلت صفادي عنهم الصفدا

وحسن بر اذا فاضت حلاوته
على فؤادي مع حر الأسى بردا

بل قال للملك المعتمد :

وكم حوى الترب دوني من ذوي رحمي
وما فقدت ـ لبعدي ـ منهم أحدا

ولـم يثرني ـ من مثواك ـ موت ابـي !
وقد يقلقل مـوت الوالـد الوالـدا (5)

نص عجيب « لم يثرني ـ وانا معك ـ موت ابـي » انـه واقع غريب!واغرب ما فيه ان يقر به!فليس كل حقيقة تقال ! ومع ذلك فهي حقيقة بليغة في الدلالة على الاطمئنـان الذي يجده الى جنب الملك في صحبته . وهو معنى لن يخطر لغيره ان يبوح به الا اذا كان في جرأة ونبـوغ ابن حمديس وفي اخلاصه الواقعي والابـداع .

وتراه أيضا قد أعلن أن هاته الصحبة قد أنسته حرقتـه الوطنية وأخمدت فيه جذوة الجهاد ضد الطغاة المكتسحين .

الجاريـــة جوهـــرة :

هي نعمة من النعم التي أغدقها ملك الأندلس على شاعرنا . لكنها نعمة فريدة قد شدت حاجته وأمتعت ذوقه وسكنت لها نفسه ، تجمع بين الفن والجمال ورجاحـة الفكـر وكفـاءة النفـس .

بيضاء اللون غاوية بالشباب والفنون الأدبية . وهي على دعجها مفتونة بالتكحل ، وتكويـن ذنبة بديعـة من العيـن تزيدها ظهورا وجمالا ، فكان شاعرنا يقوم لينظرها اذا نامت حذوه ، حتى يتملى بذياك الذوق البديع ، فيشبع منها نظره ، وهي لا تدري ! ويشبع منها قبلا وهي لا تتحرك ، حتى اذا تحركت زادته رشاقتها افتتانا . فصاغ فيها الشعـر الذي صفق له الصفدي من مصر بعد ثلاثة قرون كاملة . وقد كان

---

5) القصيدة : 107 ، الابيات : 24 ، 27 ـ 28 ، 25 ـ 26 .

قبله أبو الصلت الأندلسي أمية بن عبد العزيز قد وضع دراسة مستوفاة عن مآخذ أدب صاحبنا وأشباهها في أدب الصدر العربي ، فاعجب وأعلن أنه لم يسمع في «اجتماع الكحل والتكحل أحسن من قول ابن حمديس :

زادت على كحل العيون تكحلا
ويسم نصل السيف ، وهو قتول (6)

بل تراه قد خص جمال التكحل بالأعين النجل :

فالكحل لا يفتن الأبصار منظره
حتى يصير حشو الأعين النجل (7)

والجارية جوهرة (8) مفتونة بعقربة الصدغ ، مما قد بقي اثره الى اليوم ، ميزة بنات اسبانيا ... وفي الحقيقة فان

---

6) احال المؤلف هذا البيت هنا الى القصيدة 350 في الديوان الذي جمعه وحققه وتعده الدار للطبع ، ولا وجود لهذا البيت فيه ولا في طبعة روما (الناشر) .

7) القصيدة : 281 : البيت : 2.

8) نجد للمعتمد بن عباد مقاطيع بديعة في جوهرة ، تنطق جميعا بابائها وعفتها وتنطق بعزتها واعتزازها ، من ذلك قوله (من بحر السريع) :

سموك بالجوهرة مظلومة مثلك لا يدركه اللاقط

وقوله من (بحر الرجز) :

جوهرة عذبني منك تمادى الغضب

واننتها « السيدة الكبرى » ام الربيع بالكتابة اليه على لسانها في بطاقة استعجالية فعرف الانشاء والخط خصوصا وقد بدأتها بقولها : من الماذونة بالكتابة فقال فيها :

لم تصف بعد والا ، فلم لم ار في العنوان من « جوهره »
درت باني عاشق لاسمها فلم تشا للغيض ان تنكره
قالت اذا ابصره ماثلا قبله ؟ والله لا ابصره

واخيرا اخلص لها المعتمد الحب الشريف بان زفها لشاعره واغدق عليها النعم وصارا جليسيه .

حضارة التجمل قد بلغت في الأندلس مبلغا عظيما ، بما جمعته من خلاصة ما قد انجر مع موجة الفتح العربي من حضارة الفراعنة وحضارة قرطاجنة ، في كل ما بلغته مدنية البحر المتوسط . ولا يخفى أن حضارة التجمل هي تاج مدنية العصر ، مما يصلح أن يعتبر مقياسا .

وجوهرة قد كانت في ذاتها مقياسا لتلك الحضارة ، ناهيك أنها قد فتنت المعتمد بن عباد نفسه ، الا أنها وضعت حدا لفتنته باعتمادها على « السيدة الكبرى ، أم الامراء » . فاختار لها الملك شاعره عبد الجبار بن حمديس ، فزفها اليه اثر ما وردت أخبار صفاقس بموت ابنة اعمته : أم أولاده ، فأحسن ما يعزيه به أن اهداه « جوهرة » . وبالفعل فان جوهرة أخلصت اليه ونعمته النعمة التي لم يحلم بها في وطنه ولا مع زوجته الحفيظة الكفيلة .

وفي الواقع فقد وجد ابن حمديس الفتنة والشباب والاخلاص والمتعة ، كما وجد معها شبابه الأول وهو اليوم في شرخ رجولته في النيف والثلاثين ، بما كفر لديه عن كل اساءات الدهر . وهكذا نرى هذا المحروم المحروب الطريد قد انغمر في بحر من لذاذات الأندلس ونعيم اشبيلية التي قال عنها للمعتمد :

بدلت من معشري الأدنين معشرها
لا فرق الله فيما بيننا أبدا (9)

---

9) القصيدة : 107 ، البيت : 24 .

وبقي طول حياته يتلذذ بذكرى سعادته في اشبيلية بالأندلس :

فان كنت أخرجت من جنة فاني أحدث أخبارها (10)

الرزية :

كان حلما لذيذا ، ودام ذياك الحلم سبع سنوات الا تسعة ليالي سودا . اذ أن نعيمه ذاك الذي بدأ في جنة المعتمد ، قد انقضى بسقوط دولة بني عباد ، عندما أخذ المرابطون ذلك الملك أسيرا من قصره يوم الأحد لاحدى وعشرين ليلة خلت من رجب سنة 484 هـ . اربعة وثمانين وأربعمائة بعد أن خالع عن 800 ثمانمائة امرأة أمهات أولاد وجواري متعة واماء تعرف ، ورزق من الناس حبا ورحمة ، فهم يبكونه الى اليوم (11) .

لقد انحل عقد ذلك البلاط السلطاني الباذخ ، فتشتتت جمع من كان حوله من متوجات الحضارة ، سواء في ذلك المزينون والطباخون والزوقون والصناع والصاغة ، وكذلك القيان والمغنون والمطربون ، وكذلك حفاظ الأوراق والمؤرخون وحفاظ الكتب والشعراء من جميع عناصر الازدهار الحضري وكل ما يرتبط بالبذخ والترف ، وحتى الثقافة العلمية والأدبية التي لا ترتكز على أصول الدين!... مما لا محل لدرسه هنا ، فمن بين ذلكم جوقة الشعراء ومجلس الأدب الذي كان من بينهم عدد لا يستهان به من الأمارقة والمشارقة والصقليين النازحين،

---

10) القصيدة : 113 ، البيت 34 .

11) كتاب « الحلة السيرى » خطية الجمعية الاسيوية بباريس .

فضلا عن نبغاء الأدب في الأندلس . وكان صاحبنا احد عناصر هذا المجلس فكل ذلك العقد من الحضارة ، قد انتثر وتفرق أهله بانصرام بلاط المعتمد بن عباد وانتصاب الدولة المرابطية مكانه ، وذلك في يوم الأحد 21 رجب 484 هـ (29 اوت (1091) (12) .

اذا فقد جاءته المصيبة الثانية من حيث لا يحسب مثلما أخذت المصيبة الأولى صقلية ، فذادته عنها الى الأبد . وانما امتازت مصيبته هاته بأن استأصلت خيراته الثلاث ، ونكبته فيها :

- النكبة في الولد .
- ضيعة مكاسبه جملة .
- غرق الصديقة .

نكبة الولد :

1 - فقد رأيناه يصطحب ابنه البكر أبا بكر فيأخذه معه الى الأندلس وهو في الخامسة من عمره . فهذا الصبي قد وجده المرابطون شابا في السابعة عشرة من عمره ، فهو في سن العلم وسن الشباب ، ولسنا نعرف بالتدقيق ماذا كان موقفه في المعمعة التي امتشق فيها الملك المعتمد حسامه ليدافع

---

12) سقطت اشبيلية بيد ابن تاشفين والمرابطين يوم الاحد 21 رجب 484 هـ . واخذ المعتمد اسيرا بعد ان دافع بسيفه على مدرج القصر كما بسطه كتاب « مواعظ السلوك » الذي خلد من نصه المقرى «نفح الطيب» : 1 : 573 ط . اوروبا .

عن نفسه حتى أخذ قبضا باليد . وانما رأينا في ديوان ابيه شاعرنا دمعته الخالدة في مذبحته أمامه :

سلا أي سلوى ؟ من رأى مصرع ابنه
وطال لفقد الآل طول نياحه ؟

فذاك حمام البرج يذبح فرخه
فيسلو ويأسى عند قص جناحه (13)

لن نتكهن بشيء ، قد ضاع من أدب صاحبنا في وصف رزيته هاته التي بقي لنا منها هذا النص وحده ، لنقدرها نحن بما في أنفسنا من استعداد ... انما نعرف أن شاعرنا لم يبق له عين ترى الأندلس بعد هاته الحادثة وظروفها المهولة

دفن ابنه في الصمت الذي يدفن فيه المغلوبون على أمرهم والمبلوون ضحاياهم بعد الموقعة التي استتب عليهم فيها الحكم والتصرف لخصومهم ... ثم جمع ما عنده من أدباش وما بقي له من جنته الأندلسية واقبال أيامها ... ليخلي المكان لهؤلاء الصحراويين المتقشفين المرابطين ... راجعا الى افريقية ، المتوسطة بين المشرق والمغرب . ليلجأ الى الدولة الصنهاجية المستتبة تحت ملكها تميم ، حيث يقيم ولده الأصغر عمر وبناته اليتمات من أمهن .

السفينة بما فيها :

2 ـ الا أن المصائب كغلال الصيف ، يتوالى نضجها مع حر الهجير حتى تتخم أهلها . فقد توالت ونزلت به الطامة ،

---

13) المقطوع : 76 . البيتان : 1 ـ 2 .

فاخذته من تحته ، وهو لا يكاد يفهم ما تفعل به الأمواج العمياء .

فلقد أخذ سفينة جمع فيها جاريته جوهرة وابنها منه وخيراته وتحفه من كل ما بقي له ... متوجها نحو المهدية . فاهتاج البحر به ورده الى الصخور المغربية . ثم كسر سفينته عليها في الوقت الذي كان قد آمن بالخلاص من جحيم الانسان ... فابتلع البحر كل ما كان معه ، ولم يسلم الا هو ليتحدث بتعاسته وسوء حظه ...

حتى « جوهرة » العزيزة :

حتى جوهرة قد ماتت أمامه ، ولم يمكن له أن ينقذها ، تاركا لها أن تغرق وحدها دون أن يمد لها يده ، مسلما فيها الى الموت :

ان كان اسلمك المضطر عن قدر
فلم يخنك ـ على حال ـ ولا غدرك
هل كان الا غريقا رافعا يده
نهاه عن شرب كاس من بها أمرك !
وما نجوت بنفس عنك راغبة
وانما مد عمري قاصر عمرك (14)

وهي احدى الأربعة المراثي التي بقيت لنا ، مما قاله فيها . فقد أسلمها الى الغرق لأنه مندفع بغريزة « تنجية النفس » !

---

14) القصيدة : 130 ، الابيات : 24 ـ 25 ، 29 .

يظهر ان ابن حمديس طاف في الاندلس على من بقي من ملوك الطوائف فاننا نجد له قصيدا في ناصر الدولة بن مبشر بن سليمان صاحب ميورقة (انظر قصيدته تلك رقم 213 في ط . روما) .

ولكن الحادثة كانت هولا اقترن بحياته . وفي الحقيقة فقد كان يرثي فيها شبابه الذي جددته فيه وما أعادت اليه من حب الحياة وترف العيش حتى غرقت بين يديه ، وهو في حالة يمنع بها نفسه من أن يمد يده لتنجيتها . وانما بقي يرثيها :

كنت الشبيبة اذ ولت ، ولا عوض
منها ، ولو ربح الدنيا الذي خسرك ! (15)

كان ذلك في نفس العام الذي ضاع فيه مجده باشبيلية سنة 484 هـ . وسقط فيه المعتمد بن عباد فاخذ الملك الى مدينة طنجة . ثم ظهر الخطر من بقائه في مدينة طنجة على مقربة من الأندلس ، فأخذ الى بلد أغمات ، وشاعرنا في الثامنة والثلاثين من شبابه .

فهل يكون صاحبنا ابن حمديس قد لحقه في مدينة طنجة أو أنه لم يصله الا بعد أن وصلوا به أغمات ؟

15 القصيدة : 130 ، البيت : 10 .

في المغـــــرب

حطم القدر سفينتـه التي حسب أن سيصل عليهـا الـى صفاقس سالما ، غانما ما بقي له من حطام جنتـه الأندلـس فغرق كل ما كـان معـه من متـاع وحظية ... ولـم يسلـم الا بالروح . وأطلعته الأمواج على شاطىء المغرب الأقصى :

اذا صـاح بي أمـر من الله صيحـة
رجعت ورائي ، والحبيب أمامي ! (1)

وها هو قد قطع جبال المغرب متجها نحو الصحراء حيث أقيم المعتمد بن عباد في منفاه وقد وصلت أخبار متناقضة عن عطف الامام يوسف بن تاشفين عليه وعن التوسيع عليه ـ هناك ـ من كل رقابة او مضايقـة ... بما يقيـم في النفـس الموالية آمـالا فساحا أن يعود الدهر فيبسم له من جديد لـو رأت السياسـة أن تعاود به الطمأنينة وتستفيد من اعادته إلى بلاده . والمعتمد قد أبعد الى مدينة أغمات (2) عاصمة يوسف ابن تاشفين ، في سفح جبل المصامـدة ، على ثلاثة فراسخ من مدينة مراكش عاصمة الصحراء الكبرى ، على ألف ميل من

---

1) القصيدة : 294 ، البيت : 3 .

2) كان اول ابعاده الى مدينة طنجة حيث اقيم فيها مع اهله وخدمـه ومـا اخذوه معهم من متاع ثمين . وهناك قصد الشاعر القيروانـي الحصري الاعمى ومدحه فوقع له بجائزة 36 مثقالا من الذهب .

البحر المتوسط وعلى أكثر من مائتي ميل من المحيط الأطلسي الذي عليه ثغر أغادير ، فالمصامدة قد كانوا أخلص الناس لحركة الثورة المرابطية ، وفيهم قد نشأت ، وبهم قد تقوت ، فلا غرابة أن يكون قد اختارها ابن تاشفين لاقامة الملك المخلوع ريثما يرى عمل التبدل على نفسه ونصرائه ، كما كان اختارها من قبل لاقامة منفيي مدينة فاس من الدولة المنقرضة ، وقد سرح أكثرهم بالسلامة ورجعوا الى ما كانوا عليه في عز الدولة الجديدة مثلما كانوا سادة في الدولة القديمة .

وكانت الأخبار تصل من بعيد عن الافراج عن الأسير الأعظم ، الذي كان شاعرنا قد نعم في مجده ، ثم هو قد رأى بعينه حادثة أخذه من قصره في اشبيلية مكبلا بالحديد . وها هو لبضعة أشهر قد أفرج عنه ، وان كان أبعد لقلب الصحراء فلعل الله يبدل أمرا

وهكذا نرى شاعرنا ابن حمديس يضرب عن فكرة الهجرة الى صفاقس والمهدية ويدبر أمره ليخترق سلسلتي جبال الأطلس ويخترق الصحراء اليه .

وبالفعل فاننا نجده الى جنب المعتمد في مدينة أغمات ؛ فهم قد انتقلوا به سنة 1092 م الموالية ، ونراه قد حل من قلبه ومصافاته المكان الذي كان عليه في اشبيلية ، رغم تبدل حال الملك المطلق بنظام الرقابة المقلقة . ونرى شاعرنا يبادل الملك مقارضة الشعر ، ونرى صاحب الجلالة المخلوع يتنازل الى الاعتذار لشاعره ابن حمديس بأبيات رقيقة يعلمه بها أن خدمه من أهل المغرب قد كذبوا عليه في عدم تمكينه من مقابلة جاءه اليها ، مع أنه لم يكلفهم بذلك :

عدمت من الخدام كل مهذب أشير اليه بالخفي من الأمر

فيهتز ابن حمديس للتنازل المُبكي ويرسل بقصيدة غراء في التلطف والمواساة (3) ونرى فيها صريح الأمل بأن تعود السياسة لرتق ما فتقت ويعود الدهر بكل رجاء :

تجيء خلافنا للأمور أمور
ويعدل دهر في الورى ويجور (4)

أتيأس من يوم يناقض أمسه
وزهر الدراري في البروج تدور ؟

وبالفعل فان للمعتمد بن عباد انصاره وله الظروف السياسية ، وغير السياسية ، مما يرجوه عظيم مثله قد وقع في المحنة الكبرى . وقد طال به الانتظار لتلك الفرص السانحة ، حتى سنة 486 هـ ، بعد عامين من نفيه عن ملكه . وقد رأينا المعتمد تتراجع له عزته وتغازله آماله فتعلن أشعاره في البلاد بالعظمة والعزة والاباء عن التنازل لآسريه:

قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع !
وألذ من طعم الخضوع على فمي السم النقيع
ان يسلب القوم العدى ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطباع أيسلب الشرف الرفيع ؟! (5)

---

3) انظر قسما من تلك المبادلات الشعرية بين الشاعر والملك في منفاه في ديوان ابن حمديس من ص 234 حتى 238 وقبلها القصيدة 33 فهي كلها من قصائد ذياك المنفي .

4) القصيدة : 133 ، البيتان : 3 ـ 4 .

5) الابيات : 3 ـ 7 ، من قصيدة في 12 بيتا ج 2 وجه الوردة 13 لخطية اكسفورد لكتاب « الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة » .

وبالفعل نجد هؤلاء الأنصار قد قاموا سنة 486 هـ في مالقة من الأندلس ، برئاسة ابن خلف وخلصوا أحد أبناء المعتمد فأقاموه خلفا عن أبيه وجاءته مبايعة الجزيرة الخضراء وانتقل الى بلدة أركش قرب اشبيلية مضيقا الحصار على المرابطين فيها ... بحيث أصبحت حركة يتوقع لها العواقب . وكان من الممكن أن يهادنها ابن تاشفين باظهار شيء جديد من الافراج عن أسيره الملكي الا أن « أمير المسلمين » قد عالج الحادث بسياسة القمع والقوة . فبادر أسيره بتثقيل أسره حيث حجزه عن كل لقاء وأثقله بالحديد والحرس حتى رأينا الآمال تنقلب الى طيرة ويأس ، وازداد ذلك اليأس مع الأيام التي نصرت أمير المسلمين على الثوار من جديد ، بحيث أصبح المعتمد موعظة موئسة ورأينا شاعرنا ابن حمديس وضع قصيدته « مرثية حي » يقول له فيها :

وأمنع نفسي من حياة هنيئة لأنك حي تستحق المراثيا(6)

وفي الحقيقة فان الضر قد بلغ حده بالأسير ، وبأتباع الأسير ، الذين قطعت عنهم الاعانات والأرزاق ، فاسمع المعتمد يقول في شهر شوال 487 هـ . مخاطبا نفسه في سجنه :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا
فساءك العيد في أغمات مأسورا

ترى بناتك في الأطمار جائعة
يغزلن للناس ، ما يملكن قطميرا

---

6) القصيدة : 335 ، البيت : 36 .

بـرزن نحـوك للتسليـم خاشعـــة
أبصارهـــن حسيـرات مكاسيـــرا

يطـأن في الطين والأقـدام حافيـة
كـأنها لم تطـأ مسكـــا وكافـــورا

لا خد الا تشكـى الجذب ظاهـــره
واليبس منها مع الأنفـاس مطمـورا

أفطـرت في العيد لا عادت اساءتـه
فكـان فطـرك للأكبـــاد تفطيـــرا

قـد كان دهـرك ان تأمره ممتثـــلا
فـردك الدهـر منهيـــا ومأمـــورا

من بـات بعدك في ملك يسـر بـه
فانما بـات في الأحـلام مغمـورا (7)

وانتهى المعتمد الى اليأس ، وعد نفسه من الأموات بعد ان عرف أن أمير المسلمين قد قضى على الثورة في الأندلس سنة 488 هـ . وقتل جميع من شارك فيها . وهو يحس بأن خصومه صاروا يرون في بقائه بقاء لمنبع ثورة أخرى ، وان كل تخفيف عليه ربما أعان على ذلك ، فهم يزيدونه أثقالا ويزداد سجانوه عليه قسوة حتى أصبح يكتب للمشفقين عليه :

أي نفع يجدي احتياط شفيق مت ضرا فكيف أرهب ضرا !

وبالفعل نجد المعتمد قد أعلن موته ، في نفس سنتها 488 هـ . الذي قضي فيها على الثورة ، وأخرجت جثته من

---

7) « قلايد العقيان » ص 40 و 41 من خطية المتحف الاسيوي .

السجن الى اهله وكل الناس . وهكذا انطوى بموته كل امل لاقربائه واصدقائه المقربيـن .

فنرى شاعرنا قد نفض كل امل عن نفسه ... خصوصا وقد رأى ان هؤلاء المغاربة قد اصبحوا لا يرون فيه الا شاعر الملك المعادي للوحدة ، ويتهجمون له ، فهو مضطر لتجافي العواصم ، ومضطر لموالاة التنقل بين المنازل والقرى وبين القبائل البعيدة عن الاستيحاش من السياسة . ورايناه يعتزم الخروج الى الفيافي المنقطعة :

وقد بدلت بعد سراة قـوم ... ذئابا في الصحابة لا صحابا
وألفيت الجليس على خلافي ... فلست مجالسا الا كتابا
وما ضاقت على الأرض الا ... دحوت مكانها خلقا رحابا
سأعتسف القفار بمرقلات ... تجاوز بي سباسبها انتهابا
وان الميت في طلب المعالي ... كمن نال المنى منها وآبا
وكنا في مواطننا كراما ... تعاف الضيم انفسنا وتابا
صبرنا للخطوب على صروف ... اذا رمي الوليد بهن شابا
ولم تسلم لنا الا نفوس ... وأحساب ، نكرمها احتسابا
ولم تخل الكواكب من سقوط ... ولكن لا يبلغها الترابا (8)

---

8) القصيدة : 13 ، الابيات : 18 ـ 19 ، 21 ـ 22 ، 26 ، 33 ـ 36 .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

بيـن التنشـــرد والاغتـــراب

خـذ برأيي فـي زمـاع واصـل
طرفيـــه بسفيـــن وركـــاب

واغتـرب وارج المنى ، كم من فتـى
معـدم نـــال المنـى بعد اغتـــراب

ان أتـــراح النـــوى يعقبهـــا
ـ بجزيل الحـظ ـ أفراح الاياب (*)

---

*) القصيدة : 38 ، الابيات : 24 ـ 26

التشـــــــرد

لقد هام ابن حمديس على وجهه مشردا ، وأعطى للتشرد حقه ، أقـام صلب الاغتراب ، واغنى عليه في كـل ريـح .

وعلى كل حال فقد نفض يديه من بلاد المغرب واتجه بمهجته الى الناحية الشرقية من افريقيا ، مستعينا بنفحة الأدب ، يشد به عزيمته ويعزم به على أهوال ما يلقى :

أمطتـك همتـك العزيمـة فـاركب
لا تلقيـــن عصـــاك دون المطلـــب

وآطـو الفجـــاج بكـل يعملـــة لهـــا
عوم السفينة في سراب السبسب (1)

فهو قد تحمل من الجو السياسي الذي ساد المغرب ما لـم يعد له به من طاقة ، ونفث فيها تشريـدا :

تدرعت صبري جنة للنوائب فان لم تسالم يا زمان فحارب
كأنك لم تقنع لنفسي بغربة اذا لم انقب في بلاد المغارب
فطمت بها عن كل كأس ولذة وأنفقت كأس العمر في غير واجب
بيبيت رياش العضب في ثني ساعدي
معاوضـة من جيـد غيـداء كـاعب

---

1) القصيدة : 44 ، البيتان : 1 ـ 2 .

علمت بتجريبي أمورا جهلتها وقد تجهل الأشياء قبل التجارب
ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب
اذا عد من غاب الشهور لغربة عددت لها الأحقاب فوق الحقائب
ولي في سماء الشرق مطلع كوكب خلا من طلوعي بين زهر الكواكب
وكم لي به من صنو ود محافظ لدى الغيب ، في اعدائه غير عائب
ولو أن أرضي حرة لأتيتها بعزم يمد السير ضربة لازب
ولكن أرضي ـ كيف لي بفكاكها من الاسر ـ في ايدي العلوج الغواصب

ويجدد عزيمته ويشحذها بقوة شريفة مغمورة بالنخوة والحق :

أحلت عزمي على همي فقطعه
كان عزمي من صمصامة الذرب

ما قر بي السير في سهل ولا جبل
الا كما قر جاري الماء في صبب

ولم أضق في السرى ذرعا بمعضلة
قد زاحمتني حتى ضاق مضطربي

وترتقي حر أنفاسي فابعثها
بردا وان كان مستسقى من اللهب

وأحر بالحر أن تلقاه ذا جلد
وان تبطن داء قاتل الوصب (3)

---

2) القصيدة : 28 ، امنية الطريد » ، الابيات : 1 ، 3 ـ 5 ، 12 ، 19 ، 22 ، 23 ، 25 ، 30 ـ 31 .

3) القصيدة : 14 ، جلد » . الابيات : 7 ـ 11 .

ويغني لنفسه بالعزيمة والثبات :

فـــؤادي نجيـب والجـواد نجيـب
فابعـد مطلـــوب علـــي قـــريب

وان أجدبت عنـد الفتـاة اقامتـــي
فمرتحـــي نحـو الفـلاة خصيـب

اذا كان عزمي مثـل ما في حمائلـي
فاني امـرؤ بالصارميـن ضـــروب

خـذ العـزم من برد السلـو فانمـا
هوى الغيـد عنـدي للهـوان نسيب

وبادر ولا تهمل سرى العيس انهـــا
لها خبب ـ في النجح ـ ليس يخيب

ولو لـم يكـن في العـزم الا تقلـب
ترى النفس فيهـا سعيها فتطيـب

وان ضـاق بالحـر المجـال ببلـدة
فكـم بلـدة فيهـا المجـال رحيـب

اذا أنـت لبيت العزيمـة واضعـــا
لها الرجـل في غرز فأنت لبيب (4)

وفي قصيدته هاته « القفـار » يستعرض يوم رحيله عن صفاقس وتركه لزوجه مبتدئا رحلاته المتعاقبة ويذكر دخوله الفيافي في تغربـه :

---

4) القصيدة : 30 « القفـار » . الابيـات : 1 ـ 5 ، 7 ـ 9 .

لقد خمس التأويب والعزم والسرى
وعود الفلا عود عليه صليب

رمى فاصاب الهم بالهم اذ رمى
هي الكف ترمي أختها فتصيب

وأجرى سفين البر في لج زئبق
من الآل ، هزت جانبيه جنوب (5)

في القيافي والصحراء :

وتراه هنا يذكر لنا غرائب عن سفر البر في تلك العصور ، ويذكر أهوالا لن يحسب حسابها عصر الطيران على الصحراء فهو قد خلد لنا الصحراء بما كانت عليه في عمر ذلك الانسان :

ومشحونة بالخوف لا أمن عندها
كأنك فيها حيث سرت مريب

كأنك في ذنب عظيم بقطعها
فأنت الى الرحمن منه تتوب

اذا الشمس أحمت فيحها خلت رملها
رمادا وقود النار فيه قريب

ترى رامح الرمضاء فيه كأنه
مواقع نار واقعته ذنوب

كأن ارتجاع الصوت منه تضرع
اذا لذع الأحشاء منه لهيب

---

5) القصيدة : 30 . الابيات : 14 ـ 16 .

وتحسب ان القفر حم ، فماؤه
من العرق الجاري عليه صبيب
وما كان الا خير ذخر تعده
قطاة لأرماق النفوس وذيب (6)

تلك هي الفيافي المغربية التي اخترقها ورأى فيها جيل الرعاة الموزعين ، فوصفه وخلده في نفس هاته القصيدة التي نقطعها لنستمر فيما عاناه من الصحراء المحمومة وعلى ظهر نجيب :

ومستوطن كور النجيب بعزمه
فرحلته في ظهره بمقامه
تزاحم همات العلا في فؤاده
وغر المعاني في فصيح كلامه
وفي العيس مياس بايجاف سيره
رجوم لأجواز الفلا بلغامه
اذا ثار صك الصدر بالخف ثرة
وطار به في القفر وحي زمامه
فمازال سهب الأرض قوتا لخفه
ولا انفك قوت الرجل شحم سنامه
وأعملته بدرا ولكن رددته
هلالا ، مشى فيه محاق المهامه
ومرت مطول سفره بنفاده
أتيح له مستنجز باعتزامه

---

6) القصيدة : 30 ، الابيات : 20 ـ 26 .

اذا صرصر الأرواح أغشتــه صرهــا
شوى الوجه منه حرها باحتدامــه
يبــل صدى الأرماق في القيظ ركبــه
بملتعط يثني القطــا عــن جمامــه
تمزق عنــه الكف جلبــاب عرمــض
فيبدو كنور الصبح تحت ظلامــه (7)

ويحدثنا عن سراب الصحراء ويبابها الذي أشاب قذالــه :

ومهمــه متصــل بمهمــــه مرت ، بموّاج السراب مترع
كأن منشور الملاء فوقــــه متى تمل ذكاء عنــه ترفــع
كأنمــا جــن بــه مرجــــع نغمة شاد ذي لحون مسمــع
يذيب صم الصخر حــر لاذع يفتض فيه روح كــل زعــزع
للحــر غار كل ماء ، وشوى فيه أوار الشمس كل ضفدع
لا نار تذكى في الدجى لسفره الا بريــق مقلــة السمعمــع
يقفو رذايا جنح في السير لا ترفع عنهن سيــاط المرصــع
يصلي منها دائبــات أدميــت فهو بشم الأنف منها يرتعــي
وذات أخفاف سرت أربعهــا منتعــلات بالريــاح الأربــع
كأنها ـ وللنجاة ، مــا نجت منهوشة بين أفاعــي الأنسع
تحدى بسحر ساهد في يقظة شهم الجنــان لوذعي ألمعــي
والشهب كالسهب لسبــق ارسلــت لمغرب فيه أفــول المطلــع
كأنها واضعــة خدودهــــا لهجعة فيه وان لم تهجع (8)

ويحدثنا على سيادة الجمل في الصحراء وانه خير مــن الحصان وأفضل ، مدققا فضل الخف على السنبــك :

---

7) القصيدة : 293 ، الابيــات : 9 ـ 18 .

8) القصيدة : 199 ، الابيات : 23 ـ 28 ، 30 ـ 36 .

وبيد ترى ذات السنابك في السرى
مسلمة فيها لذات المناسم

بها من قبيل الانس جنان مهمه
صعاليك الا من قنا وصوارم

ويعجب منهم من فصاحة ألسن
وما صحبوا في القفر غير البهائم (9)

وهذه حقيقة ، قد رآها فتطوع باثباتها من مصادفته لقبيلة عربية قحة مازالت على فطرتها متحصنة في حيزها الذي نزلته ، فاستبقت لسانها عربيا مبينا وان لم تدرس على نحاة ولا بلاغيين ...

ولنعد الى موضوعنا : مراكب الفيافي (الجمال) وتفضيلها في الصحراء المغربية على الخيل . فهو يعيد لنا هاته الحقيقة الطبيعية من ملاءمة المناخ :

كم فلاة دونها يدفعها
سنبك العدو الى خف الرسيم

لابن آوى وسطها وعوعة
توحش الأنس ، وللبوم نئيم (10)

ويعطي صورا منها في كل مناسبة ، فيحدث عما عاناه وحمله من خوفها وذئبها وخلائها وعزيمته التي قطعتها :

ويبيد أبادت عيسنا ليبابها
فهن غراث في فجاج لها ربع

---

9) القصيدة : 306 ، الابيات : 26 ـ 27 ، 32 .
10) القصيدة : 308 ، البيتان : 37 ـ 36 .

اذا سمع الحادي بها السمع ظنـــه
كريمـا علـى نشـز لمأدبـة يدعـــو

فكـم من مذيـل في أتبـاع هزيلـــة
ليـأكل منها فضل ما أكـل السبـع

فان يهلك الايجـاف حرفـــا بمهمـه
فانهمـــا السيف المجـرد والنطـــع

نحرت عليهـا كـل حـرف بعامـــل
من العزم مخصوص به الخفض والرفع

وعاركت دهري في عريكـة بـــازل
ينـوء به هاد كما انتصب الجـــذع

وما خـار عـودي عند غمـز ملمـــة
وهل خار عند الغمز في يدك النبع (11)

فالعزيمة والجلد تراهما في كبريائه على تلك الأهـوال ، فان ابن حمديس مظهر الشرف الانساني الذي يعالج الصعاب ويعرف ما فيها ، دون أن يخفض مما في نفسه من عزة تزري بكل شيء لتذلل كل شـيء .

---

11) القصيدة : 203 ، الابيات : 23 ـ 29 .

في افريقيـــــــة

بعد سنة 488 هـ . التي هام فيها عبد الجبار بن حمديس على وجهه في صحارى المغرب الأقصى ناجيا الى المغرب الأوسط ، نراه يحط الرحال في مدينة بجاية عاصمة الشطر الغربي من افريقية الصنهاجية تحت بني حماد من التفرع الصنهاجي .

ونجده في ذلك الاغتراب يكتب الى الطبيب علي بن أبي الدار في صفاقس بلمحة عما يتحمله في غربته تلك ، مستعرضا ما يلقي :

شددت على صدر الزماع حزامي
وجردت من عزمي شقيق حسامي

وقمت ، نهوض العود حل عقاله
فاقعدني المقدور عند قيامي

واذ صاح بي أمر من الله صيحة
رجعت ورائي والحبيب أمامي

وكيف أرى لي قصد وجهي اليكم
اذا كان في كف القضاء زمامي

وما هي الا غربة مستمرة
أرى الشيخ فيها بعد سن غلام

وما شيب الانسان مثل تغربه
يمر عليه اليوم منه كعام

أبا الحسن ! اسمع عذرة قد بعثتها
فلازلت في عز قرين دوام

اذا لم تطق عن ارض قوم ترحلا
فرزقك ما استوعبته بمقام

فلا تحسبوني قد تسليت عنكم
بطيب سماع أو بكأس مدام

ولا ضحكت سني ، وهل ضحكت ؟
وما وضعت على فيض الدموع خدامي

متى كنت مختارا على الوصل فرقة .
تطيل الى ورد اللقاء هيامي

ولا تحسبوني خائفا قطع مهمه
يدوم وأخفاف المطي دوامي

ألم أركب النفس ـ اشتياقا اليكم ـ
غوارب مخضر الغوارب طامي ؟

ألم اك في الغرقى مشيرا براحتي
فلم أنج الا من لقاء حمامي؟

ألم افقد الشمس التي كان ضوؤها
يجلى عن الأجفان كل ظلام ؟

طمعت بهذا كله في لقائكم
لتغرم نفس أتلفت بغرام

بقيـــة أحبابـــي الذيـــن حوتهـــم
مضاجـع لـم يضجـع بهـا لمنـــام

تفرقتـم للبيـن فـي كـــل وجهـــة
نثيـر جمـان في انقطـاع نظـــام

فحـزب يكف الدهـر عنه عزيمتـي
وحزب تـرد الـروم عنـه مرامـــي

سأعطي بشيرا قال لي : قد تجمعوا
ثـواب صلاتـي طائعـا وصيامـــي

وأرقب يومـا فيه بالوصل تلتقـــي
سجـام دمـوع بيننـــا بسجـــام

متى آتكم ينشر لكـم من ضريحـــه
دفين اغتراب ، لا دفين رغـــام (1)

وهو بالفعل قد خلص من المغرب الأقصى ، واستقر اخيرا بافريقية ليعيش حياة جديدة من الاستقرار . بعد أن جاوز الثانية والاربعين من عمره ، الذي سيمتد قرابة 38 سنـــة اخرى بين بجاية وصفاقس البعيدة عـن هزات الانتفـاض والنكبات الكبرى التي تحملها في صقلية وفي الأندلس وفي المغرب ، ولكنها مليئة بالأحداث الداميـة :

هل أقصر الدهر في تعنيت ذي أدب
أو قال حسبي من اخمال ذي حسب

---

1) القصيدة : 294 من ديوانه ، الابيات : 1 ـ 5 ، 7 ، 10 ، 17 ـ 20 ، 24 ـ 28 ، 30 ـ 34 .

لا يلحظ الحر الا مثلما وقعت
على أخي سيئات عين ذي غضب

قرأت وحدي على دهري غرائبه
فما أعاشر قوما غير مغترب

ولم أضق في السرى ضرعا بمعضلة
قد زاحمتني حتى ضاق مضطربي

وأحر بالحر أن تلقاه ذا جلد
وأن تبطن داء قاتل الوصب (2)

وهكذا رأيناه في بجاية ، فرأيناه يشيد بمصانعها ومبانيها في قصائد اختارها صاحب « نفح الطيب » ونوه بادبه أيما تنويه . وانما دأبنا هنا تتبع تاريخ حياته هو بكعوبها البارزة .

نعرف من حياته الخاصة في بجاية أنه قد ضم الى وليده صبية تبناها ورباها أحسن تربية ، وحنا عليها الحنو الذي انعكس فيها اخلاصا وطاعة وكرامة . سنرى منها بعد ما لا نعرفه لأبناء الصلب . فهو رجل الكرامة والحياة البيتية التي لا تنسجم لها الحياة الا بمعاشرة من تؤثره عن نفسها ، ويحيى به في نفسه روح الود الانساني والتحابب البشري البريء . لن يركن للعزلة ولن يطيق حياة لا واجبات فيها ولا عطف . وهو قد أثبت لنا في أدبه كل شيء عن صبيته الربيبة غير اسمها ! فأسماء النساء عورات تحجب في تلك الحضارة . كما رأينا في بنات صلبه وزوجته وعمته من جميع النساء الحرائر اللاتي تعرض لهن أدبه . الا حضيته « جوهرة » فقد

2) القصيدة : 14 من ديوانه ايضا ، الابيات : 1 ـ 2 ، 6 ، 9 ، 11 .

أسماها في مرثياتها الأربع خاصة . ومعلوم ان التقاليد الاسلامية قد شرعت كل ذلك وجعلت كل ما في المرأة عورة من سائر بدنها ، وحتى اسمها حجبته مع وجهها . ولم تستثن منهن الا النساء اللاتي فقدن حريتهن رقيقا ، فجعلت عورة الأمة كعورة الرجل سواء في العورة الجسدية أو التسمية .

* * *

أقام صاحبنا في مدينة بجاية مكرما سعيدا ، بما رجع فيها اليه من مخالطة ومن وسط أدبي وما يحف به من نهضة صناعية وحضارة بحرية تقوم على الأسطول والصيد والنقل والتجارة ، وعلى وجود ادارة عامة ووسط سياسي واجتماعي منعش ، قد ازدهر في عصر بني حماد مما انشعب عن الدولة الصنهاجية التي تقوم في الشطر الشرقي بعاصمتها المهدية .

فالشطر الغربي هذا ـ من افريقية ـ وان استقل بامارته وادارته وجيشه وأسطوله ، الا أنه قد بقي مرتبطا بوحدة الأصل ووحدة الدين ووحدة اللغة . ومرتبطا مع العاصمة الافريقية المهدية بمبادلات مستمرة وانتقال الرجال والصناع والأدباء الذين تفرقوا عن القيروان وأصبحوا يترددون بين الشطرين على السواء ، وقد رأينا مبلغ تناصرهما التاريخي كلما حزبهما حدث من مصائب الدهر .

وشاعرنا قد خلد لنا قصور بني حماد وأجنتهم في شعره . كما نجد له في هذا الدور من حياته قصائد في غير بني حماد من أمراء الطوائف التي كانت تقوم على أشلاء الوحدة الافريقية ، نخص بالذكر منهم بني خرسان الذين كانوا قد

استقلوا في بلدة تونس ورمموا من البلدة ليخرجوها الى مصاف المدن فهم النواة الأولى التي مصرتها ، ولم تكن قبلهم تونس الا بلدة صغيرة قد نشأت على قرية ترشيش القرطاجنية واتسع عمرانها على حساب الغض من عمران قرطاجنة التي تعمد الفتح العربي تناسيها ، وتركها الى الدهر ، حتى نزح سكانها شيئا فشيئا ، وأعمر قسم منهم تونس هاته .

ونجده اتصل بعبيد الله رشيد أمير قابس . ولعله اتصل بغيرهم ، وانما نراه في عودته الى افريقية لم يتصل بالملك تميم الصنهاجي صاحب المهدية ، وانما كان مدحه بقصيد عند نزوله افريقية أول مرة ، اذ جاء من صقلية سنة 471 هـ . مع أننا نعرف أن المعز عاش نصف قرن على عرش المهدية حتى سنة 501 هـ . ولم يخطر لنا أنه قال فيه شيئا ثم ضاع عن الديوان ، وانما نعرف جهلنا بموجبات هذا الفراغ بين شاعرنا والملك ، اللهم الوحشة التي كانت بين تميم وأبناء عمه بني حماد الذين نزل عليهم شاعرنا وانتظمت حياته بينهم عند رجوعه من المغرب .

وانما نجد قصائده في الملك يحيى بن تميم الذي ملك 8 سنوات وقد رأينا له فيه 13 قصيدة . وان لم نجد بينها ما يتحدث عما قبل سنة 508 هـ (سنتين قبل موته) الا أن مدائحه في ملوك صنهاجة قد توالت بعدها مليئة بالأدب الحر والبيان الرائع . فهو قطعا قد أصبح في صفاقس والمهدية ساكنا للدولة الصنهاجية منذ سنتها 508 هـ . فيقول للملك يحيى بن تميم :

انا من صاح به يوم النوى
عن مغانيه غراب فاغترب

طفت بالآفاق حتى اكتهلت
غرتي واحتنكت سن الأدب

ثم أقبلت على الملك الذي
مد بالطول على الدنيا طنب

فلعلي ببقايا عمري
فيه أقضي البعض من حق وجب (3)

ونجد حادثا قد طرأ في صفاقس ، من شأنه أن يقلب الوضعية ويضطره الى العودة اليها . فقد جاءته أخبارها بوفاة عمته ، كفيلة أبنائه ، وهي أم أمهم : زوجته المتوفاة اثر تشرده الى الأندلس ، وهي التي ربته وحدبت عليه :

برغمي نعتها السن الركب للعلى
فكيف أرد النعي عن السن الركب

غريبة قبر عن قبور بأرضها
مجاورة في خطة الطعن والضرب

وكنت اذا ما ضاق قلبي بحادث
فزعت بنجواه الى صدرها الرحب

فتذهب عني هم نفسي كأنما
شفت غلة الضمان بالبارد العذب

فيا ليتني شاهدت نعشك اذ مشى
حواليه ... لا أهلي حفاة ولا صحبي (4)

---

3) القصيدة : 34 ، الابيات : 54 ـ 56 ، 58 .

4) القصيدة : 29 ، الابيات : 27 ـ 28 ـ 35 ـ 36 ، 43 .

فهي رباط العائلة وحفيظتها ، فيكون موتها مدعاة له أن يؤوب الى صفاقس خصوصا وقد كان كبير العائلة ، الحكيم علي ابنهـا ، في مصـر .

ويظهر أنه لم ينتقل من بجاية الى صفاقس حتى أكرم ربيبته التي تبناها بما يحسن أن يبادر به لكل ابنة قد تصبت :

وأنكحتها ـ من بعد صدق حمدتـه ـ
كريما ، فلم تذمم معاشرة البعـل (5)

والظاهر أن ابنه قد كان يسكن تجنة ، فاننا نجده في تجنة اذ يحدث الملك يحيـى :

اتخذت تجنـة لـي وطنـا
وهجرت صقلية وطنـا (6)

وقد أصبح الأديب المعظم لدى الملوك الصنهاجيين والشفيع الذي يلجأ اليه المكروبون من أحداث السياسة وأهوالها :

ومـا صفاقـس الا بلـدة بعثـت
اليـك عنها لسـان الصـدق يعتـذر

وأهلهـا أهل طوع لا ذنـوب لهـم
انني لأقسـم ما خانـوا ولا غـدروا

وانمـا دافعوا عن حتف أنفسهـم
اذ خذمتهـم بـه الهنديـة البتـر

---

5) القصيدة : 253 ، البيت : 22 .

6) القصيدة : 335 ، البيت : 62 .

ضرورة كان منهـا مـا بـه قرنـوا

وبالضرورة عنهم نكب القـدر .. (7)

ونجد الملك علي قد عفا عنهم مستجيبا للبعثة الشفاعـة ، فشكره شاعرنـا بقصيدته الثانيـة :

أخذت صفاقس منك عهد أمان ورددت أهلها الى الأوطان (8)

كما نعرف أن ابن حمديس قد ترسم له مرتب منتظم يقبضه من الملك يحيى ، ثم قطع رسمه الذهبي في عهد الملك علـي سنة 509 هـ وأصبح دريهمات معدودة ، فاستعظم التبدل .

ولدينا تقرير شعري قد أرسله في رجب 512 هـ . يقـول للملك علـي :

أمولانـا الذي مازال سمحـا اليـه بكل مكرمـة يشـار

أرى رسمي غدا بيدي كرسم عفا وعفت لـه بالمحـل دار

وكانت لي شموس ثم أضحت بدورا والبدور لهـا سـرار

وبين سناهما بـون بعيـد وذا ما لا يراد له اختبار (9)

فأعيدت اليه ، وشكره بعودتها ، واستمرت رعاية الدولة الصنهاجية له . كما أنه استمر بدوره على موالاة نشر أدبـه في كل مناسبة بمدائح صنهاجية ، فهو شاعرها بلا انقطاع طيلة نيف وعشرين سنة . ونجد في شعره تاريخا مفصـلا لمواقف ملوكهـا الثلاثة في الاحـداث الداخليـة والسياسيـة الخارجية ، بما لو تتبعناه لخرجنا عن دائرة ترجمة الشاعر .

وهكذا نرى حياة هذا الرجل سلسلة متصلة الحلقات مـن الصدق والصراحة والثبات على المبدا مبدئه الوطنـي الـذي

---

7) القصيدة : 152 ، الابيات : 15 ـ 18 .

8) القصيدة : 331 ، البيت : 1 .

9) القصيدة : 148 ، الابيات : 55 ـ 58 .

أفردنا له دراسة في كتاب يخصه (10) ورأيناه يلازم الجهاد من أجله طيلة حياته ، سواء في عصر شبابه بالتطوع في فرقة « بني الثغر » حيث يصمد بسيفه وعدته الحربية ، أو في عصر كهولته وشيخوخته اذ لا يكاد يفلت فرصة كي يذكر فيها الدول الافريقية العربية بواجب استرداد وطنه صقلية ، أو مبداء الفضيلة والتعاون الاجتماعي والمروؤة وفقه اللسان كما تراه في محاله من سيرته .

◆ ■ ◆

أما حياته الشخصية فقد قامت في كهولته على اغراق نفسه في اللهو .

وهذا ـ لعمرك ـ غير غريب ممن جد في شبابه ، ففادى وجاهد وضحى بعواطفه الفردية وبمصالحه الكبرى والصغرى فلم يجد شيئا مما عمله ووجد الدهر يعكسه في كل شيء ويخرجه من كل شيء ... فلم يأبه ولم ينثن ولا رجع عن الواجبات الاجتماعية والأخلاقية والأدبية .

فقد كان نظم لنفسه حياة ثابتة فيها البيت والقرينة القارة والحياة الشرعية المرضية وفيها المنصب والرعاية والجاه ... فادخل الدهر أصبعه ، فقلب جميع الترتيب رأسا على عقب ، واذا بانسه وحشة ، وقراره تشردا . وجاهه وفضله قد أصبحا جريمة ، حتى قربه من السلطان ، قد أعلنته الثورة شبهة تبعده عن كل استقرار أو رحمة ... كانما الدنيا خشبة المسرح تتبدل عليها الوضعية والمنظر ، بحيث ينزل الستار عن القصر وجوقة الملك الباذخ ثم يرتفع ذلك الستار عن ذلك الملك

10) طبع كتاب « الوطنية في ادب ابن حمديس » بتونس عام 1951 .

في سجنه المظلم ، وقد انطوى عن ندمائه كل خير وكل ميسر ليعيشوا في المنظر الثاني على حياة التشرد والعناء .

وعليه فان ابن حمديس قد آمن بالتغير والتبدل وآمن بعدم الاستقرار :

فلا تلمني انني مغتنم
من السرور في زماني ما منح

فانه مسترجع هباته
وباخل من الصبا بما سمح (11)

ويلح في تبيانه هذا والكناية عنه في كل مناسبة :

باكر الى اللذات واركب لها
سوابق اللهو ذوات المراح

من قبل أن ترشف شمس الضحى
ريق الغوادي من ثغور الأقاح

يا صاح لا تصح فكم لذة
في السكر لم يدر بها عيش صاح

واركب زمانا لا جماح له
من قبل أن يحدث فيه الجماح ((12)

فأصبح ناهب لذة ، سكيرا لا يود أن يصحو في دنيا الانقلاب . ثم ضعفت قواه عن احتمال الخمرة فصار يخففها بالمزج بالماء حتى يكسر من سورتها التي يرغب فيها . وأخيرا ضعف عن تحمل هاته المقتولة واضطر لمجافاتها . ولكنه لم

---

11) القصيدة : 66 ، البيتان : 2 ـ 3 .

12) القصيدة : 68 ، الابيات : 5 ـ 6 ، 9 ـ 10 .

يجاف مجالسها أبدا فهو يكتفي بحضور مجالس اللهو وبشميم ريحها ، فيسكر بلهو الشباب من مجرد ملابسة الشباب ومجالسته :

أذهبت الحزن بمذهبة وبها ذهبت لجين يدي
ولقد نادمت ندامى الراح بمطرفي وبمتلدي
بمعتقة قدمت فأتت للشرب بلذات جدد
واذا ما اعد لها عمر ملأت كفيك من العدد
يطفو في الكأس لها حبب كصغار مسامير السرد
واذا ما غاص الماء بها في النار تردت بالزبد
ونفيت الهم ، ببنت الكرم ونقر الدف ، فلم يعد
وبت مشنفة أذني بترنم ذي النغم الغرد
فالآن ضددت كذي حذر عن ورد اللهو فلم يرد
لا أشرب ما أنا واصفه فكأني بينهم قعدي (13)

فهو يقول هذا اذ بلغ عشرة الثمانين ، محدثا بماضيه الذي بدأت معالمه تندثر ، ويبهر مجلس الملك الشاب الحسن الصنهاجي بأعاجيب أدبه .

ولكن ، كيف بلغ تلك السن ؟ فحري بنا أن نتتبع أدوار تكهله ذاك سنة فسنة ، وهو قد هيأ لنا ذلك .

---

13) القصيدة : 104 ، الابيات : 21 ـ 23 ـ ، 25 ـ 30 ـ 33 .

تدرجـــه في العمـــــر

من لطائف أدبه الذاتي أننا نجده يؤرخ عمره سنة فسنة ، لا يعدم المناسبة التي يحدد فيها تاريخه منذ بـدأه .

عمره 50 سنـــة :

فهو قد فطن لتبدل قد طرأ عليه في قواه العصبية وفـي مراسمه التي يقدره بها الناس والأوانس . ولعـل ذلك قـد بدأه اثر جوازه الخمسين من العمر ، اذ يقول في مقطوعـه الذي أنشـأه لنفسه في بيتين اثنيـن :

أحـن الى العشرين عامـا وبيننـا
ثلاثون يمشي المرء فيهـا الى خلـف

ولـو صـح مشـي نحـوه لأتيتـه
فجئت الصبا أمشي على العين والأنف ! (1)

عمـره 55 سنـــة :

فلمـا بلغ الخمسة والخمسين سنة ، أنشأها قصيدا كاملا لنفسـه يرثي بها شبابه ويذكر تفاصيل حاله في كهولتـه :

كملـت لـي الخمسـون والخمـــس
ووقعـــت فـي مـرض لـه نكـــس

---

1) القصيدة : 215 ، البيتـان : 1 ـ 2 .

وبليت بالأضداد في جسدي
عصب يلين وقامة تقسو

وتنافرت عني الحسان كما
لحظ الهصور جاذر خنس

وابيض من فودي في شعري
وحف كان سواده النقس

والعمر يذبل في منابته
غرس ويلبس نضرة غرس

أصغيت للأيام اذ نطقت .
بالوعظ فهي نواطق خرس

وفهمت - بعد اللبس - ماشرحت
والشرح يذهب بعده اللبس

أضحى يوحشني المشيب ولي
عصر الشباب يذكره أنس

ومسائرا زمنين في عمري
مصباح : ذا قمر وذا شمس

دنيا الفتى تفنى اذا خلقت
ويموت فيها الحسن والانس

وقل ما يبقى الجدار اذا
ما انهد تحت بنائه الأس (2) الخ ..

---

2) القصيدة : 175 ، الابيات : 1 ـ 10 ، 11 .

ولكن كهولته المتنورة بالشيب قد بقيت تخفي تحتها طراوة من سبابه ، تحرك منه .

عمره 56 سنة :

بالفعل وجدناه في صفاقس سنة 508 هـ يتغزل في صبية لم تتجاوز الخمسة عشر عاما من طفولتها ، وهو في السادسة والخمسين بالحساب المضبوط :

سنحت في السرب من حور الجنان
ظبية تبسم عن سمطي جمان
وكأن العين منها تجتلي
بردا للبرق فيه لمعان
بنت سبع وثمان . وجدت
عمري ضربك سبع في ثمان (3)

وقد حدث الأمير علي – وهو ولي العهد للمملكة الصنهاجية اذذاك لعهد أبيه – اذ صور له ابن حمديس في قصيدته هاته مبلغ ما في نفسه من نزوات ، يكظمها اليأس والفجيعة ، بيقين خيبته . فما زال في الكهل بقية من أحلام الصبى تثور به . وهو قد أصبح ينظر لنزواته بعين الناقد البصير .

ونراه قد ولد له جيل جديد من زوجته الصبية ، وهو مقسم بين صبوته الجديدة وحب أبنائه وملاحقة واجبات الزمان فهو في المهدية . وهو يحن لسكنى صفاقس في عشه المعطر بغضارة الصبى ومناغاة البنين وفي هذا الدور نجده قد

---

3) القصيدة : 332 ، الابيات : 1ـ 3 .

نضج نضجا جعله يوفق بين جميع ذلك وبين صناعة الادب يتكسب عيشه . فهو يصوغ عواطفه قصائد رائعة يرسلها لتنشد في صفاقس حيث زوجته ، وانما تنشد في محفل الامير علي الصنهاجي مستهلا مدائحه فيه بغرامه وصوته وبالعاطفة العائلية وحب البنين ، في جميع أضرب الحب العطر ، فهي حجه وحاجته ، وهي عواطفه الصادقة وأمداحه التي يرجو ان تكون غادقة فتوجها بمثل قوله لزوجته التي لم تتم العشرين :

خيالك للاجفان مثله الفكر فعيني ملاى بالهوى ويدى صفر (4)
ألم بصب ليس يدرى، أمرجل يفور بنيران الاسى منه أو صدر

عمره 60 سنة :

فلما بلغ الستين دشن عمره ذاك بقصيد عظيم ، لم يسمح لنفسه أن يهديه لغيره من ممدوحيه ، بأن يتوج به قصائده التي يبيعها لزينة مواكبهم الرسمية ... فكانت بعده ، وهي التي مطلعها :

قضت في الصبا النفس وأوطارها وأبلغها الشيب انذارها

حتى ختمها بحسرته الواعظة :

ضحكت ابن عشرين من صبوة بكيت ابن ستين أوزارها
فلا تعظمن عليك الذنوب فمازال ربك غفارها (5)

فهو يوبيله الذهبي قد توجه بتلك القصيدة . ولعلك تلحظ على الكهل ـ الداخل في عصر الشيخوخة ـ أنه مازال يحلم بالاتكال على المغفرة ويمني نفسه (بالذنوب) ! وانما هي ذنوب معاقرة الخمر وذنوب المغازلة التي مازالت تراود نفسه

---

4) القصيدة : 149 ، الابيات : 1 ، 4 ،
5) القصيدة : 113 ، الابيات : 1 ، 36 ـ 37 .

الشاعرة الحالمة ، اذ نراه يقص الحوادث بما حاول فيها من مغالطة ، وبصراحتها الجارحة :

تقول وقد لاحت لها في مفارقي
كواكب تخفي غيرها وهي لائحة :

أراك محبا لا محبا ، فعد عن
مكابدة تشقى بها غير سامحه

تروح وتغدو جانحا ، عن محبة
الي ، ونفسي عن وصالك جانحه

اذا ما شبابي نال شيبك عطفه
فخاسرة نفسي ونفسك رابحه

ولو علمت سني لما كان لومها
علي سنانا جارحا كل جارحه

لشيبني في عنفوان شبيبتي
لقائي من الأيام دهياء فادحه

وقطعي غول القفر في متن سابح
وخوضي هول البحر في بطن سابحه !

وما ضرها كافور شيبي وتحته
لمسك شبابي كل فعل ورائحه ؟ (6)

عمره 65 سنة :

ولكنه في الخامسة والستين قد تبدل عليه الحال من نفسه ومن حيويته . ورأيناه يراوده اليأس :

---

6) القصيدة : 65 ، الابيات : 1 ـ 8 .

تعوضت شيبـا من شبابـي كأننـي
توليت عن ظل برغمي الى الشمس !

وقطعـي بعيش بعد ستين حجـة
أرى فيه لبسا ، والتخوف في اللبس .. (7)

عمـره 66 سنـة :

وهو في هذا العمر قد تجاوز حد مداخلة اليأس) اذ أصبح على يقين من نفسه ، وعلى يقين من نفرتهن ، ازاء شيخوخته فرثى صباه وندب شيخوخته التي بلغت الستة والستين في قصيدة رائعة الرثـاء :

لـو أن ربـع شبابـي غيـر مندرس
ما بت أوحش من جور المهـى الأنس

من كـل روضة حسن زهرهـا أرج
تهدي الهوى لي في لحظي وفي نفسي

شمس شموس عن الشيب الذي جمحت
عنـه ، وذات عنـان للصبا سلس

لاح القتيـر ، فأقمـار البراقـع لـم
تطلع علي ، وقضب البان لم تمـس

ست وستون عاما كيف تدرك بـي
من عمرها ينتهي منها الى السدس (8)

---

7) القصيدة : 174 البيتان : 1 ـ 2 .

8) القصيدة : 173 ، الابيات : 1 ـ 2 ، 8 ، 10 ، 14 .

عمـره 70 سنـــة :

واذا به يعرف ان قد بلغ السبعين ، فالدهر يمشي بـــه ، برَغمه ، وهو جاثم لا يتحرك ! ولكنه مازال يطوي المراحل !:

حللت بيومـي اذ رحلت عن الأمـس
وسرت ولم أعمل جـوادي ولاعنسي

مراحـل دنيانـا رواحلنـــا التـــي
ترانـا عليها نقطع العيش بالخنـس

ونحـن بـدار يعقب الخوف أمنهـــا
وتذهب فيها وحشة الخوف بالأنس

ليـال وايـام بساعاتهـــا سعـــت
لتفريقها ما بيـن جسمك والنفـس

واني- وان أصبحت منها مسلمـا -
لأكثر قولي : ليت شعري هل امسي؟

ومن حـل في سبعيـن عامـا كانـه
عـلاج عليل في مواصلـة النكـس !

فما فهم الأشياء بالـدرس وحـــده
ولكنـــه فـــوق التفهـــم والـــدرس

وكم حكـم في حفـظ قـوم كثيـــرة
وافضل منها لمعة من سَنى الحس (9)

فيا لها من خبرة قد اختبرها بما قرعه من هذا العمر ! ويا لـــه من واقع قد تمرس به وعرفـــه ! :

---

9) القصيدة : 176 ، الابيات : 1 ـ 8 .

مـا تريـد الخـود من شيـخ غـدا
في مدى السبعين بالعمر ؟ وراح !
كـان مسـك الليـل فـي مفرقـه
فانجـلى عنـه بكافـور الصبـاح

اذن فقد انشـا لنفسه قصيدتها الوعظيـة :

وعظـت بلمتـك الشـائبـة وفقـد شبيبتـك الذاهبـه
وسبعيـن عاما ترى شمسها بعينك طالعة غاربة..(10)الخ

ولكن هذه المواعظ لم تكن لتبعد عنا ، انه شاعر وخيالي بطبعه ، وهو قد حفظ لنا من نزوات خياله غرائب وسيرا ، وحفظ لنا من سمو عواطفه وكرم عنصره شواهد يحسن ان نوردها بعد ان نستتم ما سنتمه سريعا من تتبع عقد عمره التي ظفرنا بنصوصها في صلب ديوانـه .

عمـره 80 سنـة :

فلقد حدثنا عرضا عن بلوغه الثمانين . وصور لنا مبلـغ شعوره بحقيقة هذا العمر الذي يجاوز اختياراته :

ارى الموت في عيني تخيل شخصـه
ولـي عمر في مثلـه يتقـي مثلـي
وكـادت يد منه تشـد علـي يـدي
وَرجل له بالقرب تمشي على رجلـي

وفي مـد انفـاسي علي وجزرهـا
بقـاء لنفـس غير متصـل الحبـل

---

10) القصيدة : 31 ، البيتان : 1 ـ 2 .

ثمانـون عامـا عشتهـا فوجدتهـا

تهدم ما نبني وتخفض ما نعلي (11)

فالتبدل المسرحي ونقض كل غزل ، هو الذي قد تحصحص اليه من جميع ما عاش ، لذلك قد كان يعمل دائمـا للخيـر ولا يعمل أبدا للشر : خير نفسه وخير المجتمع ، وهو يعـرف حقيقة الآخرة ويتكل فيها على رحمة الله وغفرانه كما راينا . ولن يدخر شيئا أبدا بعد أن عرف أن الفناء ياتـي على كـل ادخار . فهو في سنة 532/1147 وقد بلغ الثمانيـن .

نكسـات التصابـي واللهـو :

قلنا انه تاب عن السكر ومعابثة القيان ، مع تقدم العمـر وتعممه بالمشيب . ومع ذلك فقد كان الدهر ، وروح الشباب الذي لم يفارق نفسه الطموحة ... كانا يعاكسانه في توبتـه النصوحة التي هبطت عليه من الأزل .

فلقد حدثنا عن استثناءات كانت تقلب التوبة رأسا علـى عقب ، الى درجة تثير الدهشة الصاخبة .

ولنات بحادثة واحدة من هاته المنغصات لتوبته ، ممـا يحمله على الارتداد لعصر الشبـاب .

ولنختر حادثته مع القينة « روضة » التي كانت تلهب المحفل بنشاطها وصباها وفنونها . ولعل الندمان الأربع قـد طفحوا فانقسموا شقين في وصف قطع توبة الشيخ التائب معهم ، ولعل شبابهـا واعتزازهـا بمفعوله قد دفعها الـى

---

11) القصيدة : 253 ، الابيات : 7 ـ 10 .

استنهاض فنونها ودلها لبعث المعجزة ظاهرة جلية . وبالفعل فقد طفح الشيخ بالساقية الطروب ، فاذا بها ترفع عقيرتها بصوت استجاش قلبه وعروقه ، ورده الى شبابه الأول الطامح ، اذ تغنت بغزليات شعره الذي كان يجيش به شبابه في عصر الفتوة والنشاط . اهتز بها صوتها المحيي ، كما حدثنا به في بيانه الذي نورده بحذافيره :

هات كاس الخمر أو خذها اليك
ينزل اللهو بها بين يديك
رقة العيش بها فاخلع على
شفتيها كل حين شفتيك
واطع فيها نديمك بما
حكما واعص عليها عاذليك

فاذا سقيت منها شفقا
طلعت حمرته في وجنتيك

وتناول نشوة من « روضة »
طلعت كالشمس بالنجم عليك
تتغنى بنسيب قلته
فهواها راجع منك اليك

◆ ● ◆

فاوضت ـ في الوصل ـ عيني عينها
فازدهت عجبا ، وقالت : ما لديك ؟

أعليل انت ؟ ماذا تشتهي ؟
قلت : قطفي بيدي رمانتيك .

فانثنت كبرا وقالت : ويلتا

أو هذا كله تطلب ؟ ويك ! (12)

فيا لها من نزوة تقفز به للشباب ، وبقيت القوة على أكملها في فن الشيخ وشباب أدبه كما تراه في دقائق ما حدثك به على اسناد جميع المغريات اليك ، اليك أنت ، بكاف الخطاب ، حتى يضعك موضع التجربة ويبلوك بتلك الاغراءات التي سلطتها هاته الغانية التي تغنيك بشعرك وأدب فتوتك ... وبعدها فقط سمح لنفسه أن يحدثك عما كان منه في ذلك الموقف الرهيب . فاستعمل (تاء) المتحدث عن نفسه . وهذا « الالتفات » البارع من فنون أدبه الذي ليس هذا مكان بسطه . وسنرى منها في فصل « أدبه » . وانما حسبنا أن صورنا لك رجعة من رجعاته للفتوة عن تلك التوبة التي يطيع فيها تقدير العزيز الحكيم .

على أن الدهر قد نال من جسده وقوس من قامته وألزمه التوكا على العصا ، وأطاع الهرم الذي يعاصيه :

ولي عصا من طريق الذم أمدحها

بها أقدم في تأخيرها قدمي

كأنها وهي في كفي أهش بها

على الثمانين عاما ، لا على غنمي

كأنني قوس رام وهي لي وتر

أرمي عليها زمان الشيب والهرم (13)

في الحنو العائلي :

قلنا ان ابن حمديس قد كان رؤوفا رؤوما . وقد رأينا انه في اقامته ببجاية قد تبنى طفلة صغيرة وحنا عليها حتى

12) القصيدة : 240 ، الابيات : 1 ـ 9 .

13) القصيدة : 312 : الابيات : 1 ـ 3 .

كبرت ، فزوجها هناك ، بينما رأيناه انتقل الى صفاقس واستقر بها .

ولكن الدهر لا يرحم ابن حمديس ، ويجدد له الانقلابات المسرحية التي تختم كل ملهاة ينشئها ، بمأساة تقلب الوضعية رأسا على عقب . ليخرج الشيخ على يقين بما عوده الدهر .

الظاهر أن تظلم الشيخ ابن حمديس من كبره ، الذي رأيناه في شعره ، قد أعدى مكاتيبه التي يكتبها لأصدقائه والمتعلقين به . ولعله قد غالى فيما يشكوه الى ربيبته ، في مكاتبته اليها . ولكن الثابت أن شائعة غريبة قد عمت البلدة التي كانت تقيم فيها مع زوجها وأبنائها ، بأن متبنيها ومقام أبيها ابن حمديس قد مات فهلعت هلعا هائلا صعقت فيه ومرضت ثم ماتت حسرة عليه ، وهو حي معافى . ويأتيه الخبر الصحيح بنعيها ! فهو يزيده ايمانا بأن مهمة الدهر : أن ينقض كل ما يبني ، فاذا به يرثيها ، ولا يمكنه بغير ذلك ان يبكيها :

فيا غرسة ـ للأجر ـ كنت نقلتها
الى كنفي صوني وألحقتها ظلي

وأنكحتها ـ من بعد صدق حمدته ـ
كريما ، فلم تذمم معاشرة البعل

أتاني نعي عنك أذكى جوى الأسى
ـ علي ـ اشتعال النار في الحطب الجزل

وجاءك عني نعي حي فلم يجز
لك الكحل فيه ما لبست من الكحل

.علـى أن أسمـاع البـلاد تسـامعت
بـــه وهو يجري بين ألسنة السبـل

فنحت علـى حـي أمـات شبابـــه
زمـان مشيب لا يجـدد مـا يبلـــي

فمـت بمـا شـاء الالـه ولـم أمـت
ليكتب عمري في حياتـك ما يملـي

أرانـي غريبـا قـد بكيت غريبـة
كلانـا مشـوق للمواطـن والأهـــل

بكتنـي وظنت أنني مـت قبلهـــا
فعشت وماتت وهي محزونة قبلـــي

أقامت ـ على موتي الذي قيل ـ ماتما
وأبكت عيون النـاس بالطل والوبـل

أساكنـة القبـر الـذي ضم فتـره
على البـر منها والديانـة والفضـل

أصابك حزن ـ من مصابي ـ قاتـل
فهل أجل لاقاك قد كان من أجلـى ؟

وخلفت في حجر الكـآبة للبكـــى
بناتـا لأم فـي مفارقـة الشمـل

يريـن كافـراخ الحمامـة صادهـا
أبو ملحـم في مكـره كـابي الشبل

بكتك قوافـي الشعر من غير أدمـع
بكـاء الحمام الورق في قضب الأثـل

وكل مهـاة حـول قبـرك بالفـــلا

لما بين عينيها وعينيك من شكل الخ (14)

وهكذا نرى حرقته الهائلـة لم يسغ لها ان تجري من هـذا الشيخ دموعا ، أعظم من تلك القصيد « بكتك قوافي الشعر من غير أدمع » لأنه قد توطنت نفسه عن هاته الرزايا حتى أصبح لن يعف عن رثائه في صبيته من الغزل العزيز ... مما قد أفردنا له فصلا في كتابنا الآخر « الحب والجمال » . فارجع اليه تفد بغرائب هاته القريحة الفـذة . أما هنـا فحسبـك استعراض هاته الحياة المفعمة بالحيوية والأسى .

وليتم الدهر نعمه التي عود بها الشيخ منذ فجر شبابه اذ رزاه في أمه ووطنه وزوجته وصديقته ومبنى عزه ومليكه وكل شيء حاول أن يرمم به ذاتيته ويقر به وجوده ... نجده يفجع من جديد في ابن أخته الشاب عبد الرحمـن بن أبـي الـدار ، ابن اخته ، الذي تبنـاه بعد رجوعـه من المغـرب واستقراره في افريقية ، واختار أن يعمر به قلبه ويسد بـه فراغ شيخوخته فصب في نفسه كل علم وكل تجربة أكسبها له الدهر ، وعلمه كل ما فتح به عليه ... فـاذا به ـ اذ تـم واستجم ـ يفقده فجـاة ويموت بين يديه ويؤي والده الحكيم علي بن أبي الـدار موتـة لا يجد معها الا أن يرثيـه كما رثى حياته في جميع أدوارهـا :

انـا يا ابن اختي لا ازال اخـا اسـى

حتى أوسـد في الضريح وسـادي

---

14) القصيدة : 253 ، الابيات : 21 ـ 27 ، 29 ـ 31 ، 33 ـ 38

انـــي امـــرؤ ـ مما طرقت ـ مهمهـــم
بفـــراق أهلـي وانتـــزاح بـــلادي

يا عابـد الرحمـن حسبـك رحمـــة
وفي لهـا بالعهـــد صوب عهـــاد

أو لم يكـن بقراط دون أبيـك فـي
داء يعادلـــــه المريـــض عهـــاد

أرثيـك عن طبـع تجـدول نهـــره
بعـد ارتداعـي عـن رثـــا أولادي

انـا في الثمانيـن التـي قفلت بهـا
قيدي الزمانـة عند فقـد قيـــادي

أمشي دبيبـا كالكسيـر ، وأتقـي
وثبا علي من الزمان العادي (15) الخ

الهـــــــرم :

ونرى ابن حمديس اذ أتم عشرة الثمانين قد خارت قواه البدنية وأصبح يعتمد في مشيه على عصاه وفي قراءته على المجهر وفي حياته على ابنه . ولا يستقيم منه شيء الا الأدب . فيقول في عصاه وقد احدودب عليهـا :

ولـي عصا من طريق الذم أحمدهـــا
بها أقـدم فـي تأخيرهـــا قدمـــي

كـأنما هي في كفـي أهـش بهـــا
على الثمانيـن عامـا لا علـى غنمـي

---

15) القصيدة : 87 ، الابيات : 26 ـ 27 ، 52 ، 58 ، 70 ـ 72 .

كـأنني قوس رام وهـي لـي وتـر
أرمي عليها زمان الشيب والهرم (16)

ومع ذلك فهو يثابر مطالعة الكتب ، برغم ضعف بصره . ولم تكن الصناعة قد أتقنت تصغير المرايات المحدبة لتحمل على الأنوف ، بخفة ، كما أصبحت اليوم ، اذ بلغت درجة أن تتخذ لمجرد الوقاية أو مجـرد الزينـة فقط ، بل كانت لعصره كبيرة ذات وزن تعانيه اليد ، وهو قد احتاج لهـا ووصف الينا مجهره في قصيـد :

وجـدول جامـد في الكف تحملـه
يغوص فيه على در النهـى النظـر

يكسو السطور ضياء عند ظلمتهـا
كـان ينبوع نـور منـه ينفجـر

يشف للعيـن عن خط الكتـاب كمـا
شف الهـواء ولكـن جسمه حجـر

كحلـت عينـي اذ كلـت بجوهـره
أمـا يجلى بكحل الجوهـر البصـر

كأنـه ذهـن ذي حـذق يحـل بـه
من المعمـى اعويصـا حلـه عسـر

نعـم المعيـن لشيـخ كل ناظـره
وصغـر الخط في الحاظـه الكبـر

---

16) القصيدة : 312 ، الابيات : 1 ـ 3 .

يرى به صور الأسطار قد عظمت
كعنصر الماء فيه تعظم الأبر (17)

وينظر الى شيبته في مشطه العاجي فيقول :

مشطت بالصبح صبحا فزدت في السرح شرحا
وقد خسرت حياة عدت من الزيج ربحا ! (18)

فهو يرى كل تغير يطرأ عليه ، ويعرف كيف يعبر عن احساسه به وشعوره . وهو يعرف ان ذلك التغير انما هو سير نحو الفناء ، بل ان كل عضو وكل مظهر من مظاهر الانتكاس يسميه موتا . ويعبر على ابيضاض شعره تعبيرا بليغا يعلن به انه ميت لا يريد تكفينه :

بقيت مع الحياة ، ومات شعري
بشيبي . فالقذال به تفقا

فشعري لا يكفن في خضاب
ولا ينفك للأبصار ملقى

وتركك ما شجاك الموت منه
بلا كفن لحزن فيك أبقى (19)

وهو يشعر بالفناء يدب اليه في تخور قواه وفي خمود نشاطه عامة ، فيعلن ذياك الادراك المحزن في صيغة من تساؤل المفجوع وتمحيصه :

يا نار نشاطي أين سناك ؟ وأين لظاك بمفتادي ؟
زندي ولدتك ، وقد عقمت عن حمل السقط فلم تلد

17) القصيدة : 129 ، الابيات : 1 ـ 3 ، 5 ـ 8 .
18) القصيدة : 67 ، البيتان : 1 ـ 2 .
19) القصيدة : 234 ، الابيات : 1 ـ 3 .

احييت بذكري ميت صبا أبكيه مسايرة الأبد
ولو أن كريما تفقده يفدى بالنفس اذا لفدي (20)

فابن حمديس شاعر حقيقي ، يشعر بكل تطور يحدث عليه . ويعرف كيف يقدم شعوره الذاتي ، في شعر يحس بشاعريته الناس . بحيث رثى شبابه في حياته بكل صراحة في اعشرات القصائد ، ورثى كل عضو مات من أعضاء شبابه ، وتفجّع لكل مظهر من مظاهر الموت والفناء الزاحف عليه :

أرى الموت في عيني تخيل شخصه
ولي عمر في مثله يتقى مثلي
وكادت يد منه تشد على يدي
ورجل له بالقرب تمشي على رجلي
وفي مد أنفاسي لدي وزجرها
بقاء لنفس غير متصل الحبل
ثمانون عاما عشتها ووجدتها
تهدم ما نبني وتخفض ما نعلي (21)

وسنرى انه صادق الاحساس بهذا الموت الذي يتقدم نحوه ، والذي أخذ من نشاطه البدني وأخذ من رجليه فاحتاج للعصا وأخذ من عينيه فاحتاج للمجهر وكفن شعره الفاحم في اكفان الشيب وأصبح يلاحقه حتى يكاد يقبض بيده على يده ويكاد يدوس برجله على رجله .

اللهم الا شيئا واحدا سينص عليه ، قد كان ينمو معه ولا يهرم فيه بتقدمه في الزمان . وهذا الشيء هو قوة فنه «الادب» كما سيأتينا .

---

20) القصيدة : 104 ، الابيات : 16 ـ 18 ـ 20 .
21) القصيدة : 253 ، الابيات : 7 ـ 10 .

نهايـــة العمـــر

اذا فقد أوى الشيخ الى ظل ولده محمد ، فأوى الى بيته في آخر عمره بعد أن يئس – مقهورا – من قوى الحياة . وولده هذا محمد بن عبد الجبار بن حمديس ، قد كان – كذلك – في مجد أدبه وعلمه بعد أن أصبح كهلا . فسلم صاحبنا للقدر خاضعا لأن يصبح مكفولا لابنه بعد أن كان كفيلا للأبناء المنكوبين في ذويهم ، وهو ينشد :

أسلمني الدهر للرزايا وغير الحادثات رقشي
وكنت أمشي ولست أعيا فصرت أعيا ولست أمشي
كأنني اذ كبرت نسر يطعمه فرخه بعش (22)

فتراه في عجزه البدني ينشط عقله لاخراج تنويهه بابنه الذي أصبح كفرخ النسر ، ويرى نفسه النسر الذي تقدم في العمر وشاخ ، فلزم العش ، ثم ينص على أن ابنه قد

---

22) القصيدة : 184 ، الابيات : 1 – 3 .
اعتمد هذا النص الشعري في البيت الاخير بعض الكتاب المتاخرين في عصر العجز والتوكل ليستخرج (فائدة) يضلل بها قراءة ما داموا مخدوعين بجهله المركب . فقد اضاف لعلم الحيوان : (ان النسور ترعى كبارها اذا شاخت ، وتاخذها الى اعشاشها فتطعمها مثلما كانت قبل تزقها اثر خروجها من البيضة) هكذا يكتبون ولا عماد لهم في علم الحيوان . الا هذا البيت الشعري الذي لا صلة له بما يكتبون . ولا يقتضي سياقه شيئا مما يسوقون :
ولكن تاخذ الافهام منه على قدر المدارك والعقول

أصبح قائما بشؤونه ، اذ انضم الى بيت الابن البار وأوى مسترسلا في تشبيهه لنفسه بالنسر ، بحيث عبر عن ابنه (فرخه) مجانسة لما في الشطر الأول . وهذا كثير في أدب الفحول من الشعراء .

على أن هذا العجز الذي ينوه به ويشهر ، انما هو عجزه البدني وهرم شعره وأعصابه ، ولكن هذا الهرم لم يتناول فنه ومداركه وفطنته ولا تناول العجز شيئا من قواه العاقلة . فاسمعه يقول الى الملك الحسن الصنهاجي (ولي سنة 515 هـ) وختمت به الدولة الصنهاجية (سنة 543 هـ .) يقول :

انـي استوليت على أمدي ... ووطئت بفطنتي الفطنا
وسبقت فمن ذا يلحقني ... في مدح علا الحسن الحسنا
أنا من أهدي لك ممتدحا ... دررا أغليت لها ثمنا
وقديم العهد ، جديد الود ... هناك أفوه به وهنا
فمدحت غلاما ، جد أبيك ... وها أنا ذا شيخ يفنا (23)

فقد فني جسمه مع الأجيال ، ولكن ذهنه وفنه وخبرته ارتقت بتجارب الأجيال وبها ازداد ذوقه الأدبي صفاء :

وطعنت في السن الكبير وما نبا
عن طعن شاكلة البديع سناني (24)

فهو قد رحل عن الثمانين ودخل عشرة التسعين ، وكان شعوره بالموت صادقا ، فقد نصوا على أنه مات سنة 527 هـ. فهو قد ناف عن الثمانين بعام هلالي ، وهي سنة (1133 م) .

---

23) القصيدة : 335 ، الابيات : 19 ـ 20 ، 59 ـ 61 .
24) القصيدة : 331 ، البيت : 35 .
25) قال جامع ديوانه عند تتويجه قصيد « رثاء امين الملك » ما نصه : « قال في اخر عمره في السنة التي توفي فيها 527 يرثي .. » .

أخلاقـــــــــه

لـم يهـــج قـــــط :

وما أنا ممن يرتضـــي الهجـــو خطـــة
على أن بعض الناس أصبح يهجوني

أسالـــم مـــن ألفيت قـــدري كقـــــدره
وأعظـــم من فوقـــي وأخفر من دونـــي

ولو شئت يومـــا لانتصرت بمقـــــول
يحيل على الأعراض حد السكاكين (1)

فهو يعتبر جميع الناس اعوانه يخاف ان يجرحوا . ويوضح شعوره ذلك ويبينـــه بكل جـــلاء ، فهو يشعـــر بكرامـــة مـــن يساويه ، ويشعر بكرامة من هو فوقه ، وهو أيضا يشعـــر بكرامة البشرية فيمن هو دونه ، فيسالم نده ويحميه ويكـــرم من فوقـــه ويخفر ذمة الآخرين ممن دونـــه .

وبالفعل فانك لا تجد في ديوانه هجاء أبدا ، ولا تجد فيه غضبا وسخطا على انسان ، ولا تجد فيه نقمة ، اللهم نقمته التي لا يعادلها شيء غير حبه للشباب والصبايا ، فهو ناقم على الشيب ، وهو ناقم أيضا لافتكاك الصليبيـــن وطنـــه

---

1) القصيدة : 343 ، الابيات : 1 ـ 3 .

صقلية . ولكن لم نجده يسب الشيب أو يهجو الصليبيين . انما يتوجع ويعمل لاسترداد وطنه حتى اذا امتنع عليه العمل الحربي ، بقي يحرض اخوانه والمؤمنين قاطبة وملوك الاسلام في الأندلس وفي افريقيا ، حيثما حل.ولكنه لم يسب ولم يدخله اليأس أبدا . وانما يئس من استرجاع الشباب ، فبقي يتغنى به ، ويحكي عن شيبه دون هجو ، لأن نفسه تأبى عليه الهجاء.فلم يهج انسانا ولا حيوانا ولا اي شيء أبدا، حتى العقرب التي خصها بقصيد ، وحتى الرمد لم يهجه . فالهجو بعيد عن أخلاقه . ولاحظ ذلك عليه أصدقاؤه ، وكلموه فيه ، وكأنما هم قد لمزوه بالعجز عنه .

يقولون : لم لا تجيد الهجاء ؟ فقلت : وما لي أجيد المديح ؟
فقالوا : لأنك ترجو العطاء ! وهذا ـ لعمري ـ شيء صحيح
فقلت : صفاتي ؟ فقالوا:حسان فقلت : نسيبي ؟ فقالوا:مليح
فقلت اليكم ، فلي حجة وللحق فيها مجال فسيح
عفاف اللسان ، مقال الجميل وفسق اللسان ، مقال القبيح
وما لي ؟ وما لامرىء مسلم يروح بسيف لساني جريح(2)

فهو ـ اذن ـ يتمسك بالعفة ، ويعتز بعفة لسانه ، وهو يشعر بكرامة نفسه ، فيكرمها عن الهجو .

واذا كنت ترى أنه في البيت السادس ، انما نص عن امتناعه عن هجو المسلم ، فلا يجب أن نلزمه شيئا من مفهوم المخالفة ، أي أن تتبع ديوانه يرينا أن ابن حمديس لم يهج النصارى ولا اليهود ولم يهج انسانا على الاطلاق .

---

2) القصيدة :70 ، الابيات : 1 ـ 6 .

وانما تعبيره بالمسلم لأن الحروب الصليبية قد جعلت الألسن تعتبر « الأخوة في الاسلام » أبرز وأصفى الأخوات ، فالتعبير به أبلغ . فهو تعبير قد عم عصره ، من رد الفعل لتلك الحروب المتتالية على البحر المتوسط ، مثلما عم قرننا هذا من صفاء الوحدة الوطنية بحيث أصبحنا نعبر بالتونسي والمصري والمغربي في مواقع الوحدة التامة والأخوة الصافية ، متأثرين بقوانين الحروب الوطنية التي لا تكاد تنقطع !

وإلا ، فان عبد الجبار بن حمديس قد كان على خلق عظيم يتسع خيره للبشرية قاطبة وللدنيا جميعا ، ولن تزلزله الأفكار السوقية ولن تعوج من استقامته التيارات العمومية .

لم يهج ،ولا يريد الاساءة ! فهل هذا من طبعه ؟ وهل عم سيرته منذ أوليته ؟ وهل لم تأخذه حمى حب حبيبه الى بغض المزاحم وهجوه ؟ ولا طاش به مغالبة الشباب وفورات الصبى لشيء من ذلك ؟

طبع وتطبع :

لقد كان ابن حمديس يحب فيتغزل ويمدح ، ولكننا لم نره يهجو قط ، حتى لو شتموه ، فانه لا يهجوهم ، فضلا عن أن يشتم :

اني امرؤ لا ترى لساني منظما ما حييت هجوا
كم شاتم لي عندت (3) عنه مصمما في اللسان فهوا (4)

---

3) عند عنه فهو عنيد : اذا امتنع وابى المطاوعة ، فلم يجار ولم يغالب .

4) الفهر مصدر ، فها يفهو اذا تناسى وغفل فصاحبنا لا يساير المهاجئين ويصمم على نسيانهم من لسانه .

وابتـده الهجـو فـي ظلمـا حتـى اذا لـم أجبـه روى
لفظتـه زلـة ، تلاقـي من لفظتي فـي الخطاب عفوا
كم قائل اذا تركـت غيه (5) تجري ـ بترك الجواب ـ رهوا
وعوع سيد على هزبـر (6) فمـا رآه الهزبـر كفـوا
ولـو سطـا قادرا عليـه لم يبـق للطير فيـه شلوا

◆ ● ◆

ان مطايا القـريض نجـب أجـيد سوقـا لهـا وحدوا
بمـثل زأر الهزبـر جـزلا أو كبغـام الغـزال حلـوا
لو شئت صيـرت بالقوافـي غارة هجـوي عليـه شعـوا
ومـزق القـول عنـه عرضـا لا يجد المدح فيـه رفوا (7)

واذا كان عدم الهجاء ، من طبع صاحبنا ، فهو طبع قد وجد له معارضات كثيرة ، ووجد عاذرين . وتراه هنا يحكي أقوال أصدقائه ومكبريه ، فتستشعر منه الغضبة المكبوتة تكاد تنفجر بل تراه قد انفجر بالفعل يهدد ويتوعد . ومع ذلك ، فقد وقف عند حد الوعيد ولم يهج . وغريب أن يكون الغضب في النفس ، وأن يبلغ مبلغه ، ومـع قوته تلـك فانه لا يصل لاخراج الشتيمة والهجو . فهو على تربية زكية تقيده وتمسكه .

الا أننا نعرف أن الهجو قد كان في الأدب العربي بابا محببا مسنونا ، قد بوبوا له ووطؤوا من وحشته ، بحيث سار فيه الأكثرون ، ولو من باب الاستيعاب أو من باب التظرف ، اذ

---

5) الغي : الغواية الضالة والتيار النفسي غير المستقيم . قال تعالى « يتبعهم الغاوون » .

6) السيـد : الذئب . الهزبـر : الاسـد .

7) القصيدة : 352 ، الابيات : 1 ـ 11 .

جعلوه فنا ومنهجا،فيحمل تاركه على العجز دونه كما رأيناهم « يقولون : لم لا « تجيد الهجاء ؟ » بحيث كان يقاوم الاغراءات الصريحة ، حوله . ويتغلب عليها .

والى جنب طبعه المسالم ، فانه قد وجد صدمات هائلة ومعاكسات غريبة وأذية بالغة : أخرج من وطنه فتغرب ، وعوكس في إرادته الجهاد فتحمل حياة التشرد عوض ما قصده من ميادين الكفاح ومصارعة المغيرين ، قتل ابنه أمامه ، غرقت حبيبته الجارية بين يديه ، ويداه مكتوفتان عن انقاذها ، ثم ان الأقدار ترجعه الى المغرب وهو يريد التشريق الى افريقية ، فاذا به يحمل على التوغل في دواخل المغرب بين رجال الثورة الموحدية الذين يرون منه الرجعية ، من خدام العهد الملوكي الذي قضوا عليه ... فحق له أن يهجو ويسب !

ومع كل ذلك فان صاحبنا لم يهج والا سب ، بل لزم جانب الأخلاق، لا تبين عن شفتيه الا دمدمة ، بما يغلي في عروقه من قهر . ثم هو يصف ما يجد بكل وضوح وبكل صراحة مما يضيق به ذرعا ، اذ لم تعد عينه ترى في المغرب نورا :

شرق لتجلو عن ضيائك ظلمة فالشمس يرمد نورهافي المغرب
ان الخطوب طرقنني في جنة أخرجنني منها خروج المذنب
من سالم الضعفاء راموا حربه فالبس لكل الناس ثوب مجرب
كل لاشراك التحيل ناصب فاخلب بني دنياك ان لم تغلب
لا يكذب الانسان رائد عقله فامرر تمج وكن عذوبا تشرب
ولرب محتقر تركت جوابه والليث يأنف من جواب الثعلب

أصبحت مثل السيف أبلى غمده طول اعتلاق نجاده بالمكسب
ان يعله صدأ فكم من صفحة مصقولة للماء تحت الطحلب(8)

فهو ينذر بأن نفسه قد تحملت غايتها وأشرفت على ختام التحمل ، وكأنما الغضب ـ الذي يخفيه في قلبه ـ سيف ، ما زال يحمله على عاتقه ، لا يجرده من قرابه ، حتى لقد أبلى غمده ، فهو سيظهر بعد طول الصمت والاحتباس ، من وراء طبقة التجمل والتخفي ، فيبرق صقيلا ماضيا كما تلمع صفحة الماء أزلت عنها الطحلب ! فتشفي غلة الضمآن ولو كانت حارة تكوي .

اذن فصاحبنا انما كان يكظم غيظه كظما ، ويكاد ينفجر مما يلقاه من عنت بين أناس قد أشربوا بغضه ولا يرون فيه الأخوة التي يحسها ويحلم بها ، فهل يعاتب الدهر ؟

ألا ، كم تسمع الزمن العتابا تخاطبه ولا يدري الخطابا
وان أخا الحزامة من كراه كحسو مروع الطير النغابا
فكم ملك ينال بخوض هلك فلا يبهم عليك الخوف بابا
وقفت على النقائض مستريبا وقد يقف اللبيب اذا استرابا
وفي خلق الزمان طباع خلف يمرر في فمي الغب العذابا
وقد بدلت بعد سراة قومي ذئابا في الصحابة لا صحابا
وألفيت الجليس على خلافي فلست مجالسا الا كتابا
وما العنقاء أعوز من صديق اذا خبث الزمان عليك طابا
وما ضاقت علي الارض الا دحوت مكانها خلقا رحابا (9)

---

8) القصيدة : 44 ، الابيات : 3 ـ 10 .

9) القصيدة : 13 ، الابيات . 1 ، 6 ، 12 ـ 13 ، 17 ـ 21 .

فأي اعتلاج يعتلج في نفسه مما يلقاه من ضيم ! وهو موقف لا يمكن أن يحتمل ، وقد وجد المخلص الوحيد منه أن ركب القفار وشرق نحو صفاقس كما رأينا في سيرته . فهو يرجع للحضيرة التي اشتاقها من الصفاء العائلي ومن التوادد والتكافل.

وكلما وجد الضيق وسوء الظن وسوء المعاشرة عالج نفسه بتذكيرها بفضائل التجمل والتجلد ، وراضها لكظم الغيظ ، وحملها على حسن الرد وعلى الحلم ، وردد على لسانه مبلغ حسن عاقبة الحلم :

وجدت الحلم ينصرني على من ... تسل لحربه ظبة الحسام
ولي كلم كان اللفظ منها ... يراش السمع منه بالسهام
ولكني أكفكفها بحلم ... يلاث البرد منه على سمامي
ولست أعيد من حنق عليهم ... مخاطبة لتجديد الخصام
ويقصر في الحقيقة كل شيء ... ثنيت جميعه،غير الكلام (10)

فهو يقنع نفسه بما في الأغضاء من فائدة ، ويبين بالخصوص ما في سياسة الحلم من قوة تكفل النصر الذي لا يرجوه من سياسة البطش والقوة . وهي نقطة عزيزة في ذلك العصر قبل أن يستقل علم النفس وعلم سياسة الأفراد وعلم سياسة المجتمع . فقد كانت سنة الجبر هي الظاهرة ، ولم يكتشف قوة الحلم والأناءة والمصابرة الا أفذاذ من الموفقين. وها نحن الى عصرنا هذا ، نرى كبار ساسة الشعوب يتورطون ويورطون شعوبهم في حروب ومغالبات قد كانوا في غنى عنها لو وفقوا الى هاته السياسة التي قررت ببنود مسطرة في كتب السياسة وفي قوانين المجتمع وقوانين التربية

10) القصيدة : 299 ، الابيات : 1 ـ 5 .

الفردية على السّواء . وابن حمديس يصور هاته الحقيقة بكل وجهوبكل صورة ، ويرينا أن القوة العنيفة ، هي أقل من قوة المسامحة واللين ! ووجد الحلم يقتل الجهالة بما يؤلفه ضدها من قوات الذوق السليم عند البشرية قاطبة :

الا ! رب كـاس تقتضـــي كـــل لـذة
أكلتم عليهـــا طـول ليلكـــم لحمـي

بلى ! لو قدرتـــم لاتخذتـــم شرابكـــم
دمي فـــي كؤوس وهي تنحت مـــن عظمي

سلام عليـــكم ! أوقـــدوا نـار حربـكم
فانـــي مفيض مـاء سلمـي مـن حلـمي

فللحـــلم عنـدي ـ ان نقمتـم ـ عـــواقب
تقصـــر عنهـن معـــاقبـة الظلـــم

ولـي مقـــول قـد أطلقـته سجيتـــي
عـن الحمـد ، لمـا عقلتـه عـن الذم (11)

فهو يمسك لسانه عن الهجو ويطلق للسانه العنان فـــي الحمد ، سجية منه ،وبمدارك رشيدة قد وطدت تلك السجايا وجعلتها طابع الحضارة والرفعة ، فهو طبع قد تخلد فيه من تربيته ، وأيده ادراك .. وذوقه السليم ، وأيـــده بتجارب الحياة ، بحيث صفت فيه انسانية رفيعة وتكرم بحضـــارة يؤيدها المنطق والإدراك الاجتماعي الأسمى،بحيث تهذب بغضه

---

11) القصيدة : 301 ، الابيات : 1 ـ 5 .

وغيرته وحماسه ضد ما ينافر مصلحته أو يصادم حاجياته . فلم يعد يتولد على لسانه شيء من الجهالة الحانقة مما جعل غيره يفاخر بجهالته في مقارعة الجهل بالغلو في الجهل :

« ألا ، لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلين (12)

فابن حمديس لا يرى أن يجهل فوق جهل الجاهلين ، ولا تحت جهلهم ، بل يعطي القياد للعقل وحده ويتحكم – بحضارة ورفعة – في غرائز الغضب ، لتتصرف نافعة غير جاهلة :

اني امرؤ – وطباع الحق تعضدني –
مطهر العرض ، لا أدنو من الدنس

ألفت حسن سكوت لا أعاب به
ولي بيان مقال غير ملتبس

فما أحرك في فكي – عن غضب –
لسان منتهش الاعراض منتهس

قد يعقل العاقل التحرير منطقه
ورب نطق غدا في الغي كالخرس

والجهل – في شيمة الانسان – أقبل من
تخلخل النبض في بحران منتكس (13)

فهو لا يريد أن يجهل بالغضب . يريد من العقل المنطقي أن يكبح من جماح طبع الغضب .

اي رجل صاحبنا هذا ! وأي حضارة نفسية تجعل من الانسان آلةادراك منطقي يقيس الأشياء ويقارنها مقارنة ادراك وتمييز،

12) من معلقة عمرو بن كلثوم التي مطلعها :
الا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرين

13) القصيدة : 173 ، الابيات : 29 ، 33 .

فيعتقل نفسه عن الغضب الذي هو طبع بشري بدائي . لقد جاوز درجة الصبر ، واحتكم في النفس ، لأن لا تغضب . فهل تحسبه بلغ درجة الملائكة الذين أفردهم الله بالطاعة العمياء والانقياد للواجب الأقدس يطيعون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ؟ وهل أصبحت نفسه كذلك هينة لينة لا تبغض ولا تتأذى .

بل ان نفس ابن حمديس قد بقيت كاملة بجميع أحاسيسها البشرية الكاملة . انما أفعاله ، التي يصدرها ، قد تحكمت فيها تربيته الراقية وعقله السامي . وهو قد أصبح يرى نفسه ويقيس انفعالات نفسه بعقل غير مدخول ولا منفعل . وهذا لعمرك سمو قد رأينا مبلغ الجهد الذي عاناه حتى تدرج اليه وخلص به .

وأعظم به من ادراك قد صوره لنا بالمنظار العلمي من طبيعة العناصر البشرية للجسم الانساني ، اذ يغلي الدم في الشرايين وينبض العرق بفورة الاهتياج ... وهكذا رمى أصبعه على العرق تحت الكوع ، ورآه ـ بعين الطبيب ـ نبضا غير اعتيادي فهو حالة مرضية فالغضب بحران انتكاس ، فلا يسعى الطبيب في تغذيته ولا في مماشاته ، بل بالعكس فان الواجب علاج الحالة الطارئة ، على حد قوله في مكان آخر « ومن عرف الداء ، يرجو الدواء (14) » . فيا له من رجل مدني ، ويا لها من حضارة وأخلاق رفيعة في ابن حمديس .

وعلى هذا الضرب قد صاغ أخلاق بشريته وطوعها لحضارة عصره .

---

14) انظر فصل « الطب » ضمن دراسة « ثقافة ابن حمديس »

عائلتـــــــه

انما نستعرض أفراد عائلته حسبما ذكرهم هو نفسه في ديوانه الذي هو أعظم عماد وقد بقي لنا منه ، بفضل مذهبه في الأدب الواقعي .

ولقد رتبنا أفراد هاته العائلة على السرد الطبيعي بحيث أوردناهم الأكبر فما دونه :

1 ـ محمد بن حمديس (1) وهو جد شاعرنا (2) عمر قرابة القرن حتى لحده حفيده الشاعر حول سنة 465 هـ .

2 ـ أبو بكر بن حمديس : هو ابن محمد السالف فهو والد شاعرنا ويمتاز عن سائر أعضاء العائلة بأنه قد بقي في الجزيرة بعد الاحتلال النرماني حتى توفي (حول سنة 477 هـ)

3 ـ العمة ـ نعني عمة شاعرنا . ويحسن أن نعرف أنه حريص على حجب أسماء الحرائر في ديوانه ، فالحجاب عندهم أغلظ مما عرفه الاسلام والمشرقان ، اذ يتناول الاسم أيضا .

---

1) قلنا ان « حمديس » هو الاسم العائلي . ولعله الجد الاعلى ، فلم يضبط تاريخه ولا عرض له في الديوان ولا كتب عنه المؤرخون الا ما كتبناه في تعليق ص 1 .

2) كتاب « التكملة لابن الابار ص : 537 ط . مجريط .

توفيت مع سنة 490 هـ بينما كان صاحبنا في بجاية وكان ابنها الحكيم أبو الحسن في مصر :

فيا ليتني شاهـــدت نعشك اذ مشـــى
حوالـــيه ... لا أهلي حفـاة ولا صحبي

ودفـــنك بالايدي الغـريبـة والتقـــى
مع الموت في اخفاء شـخصك في حدب (3)

4 ـ ... بنت أبي الدار ، زوجة شاعرنا ، وهي ابنة عمته التي ربته معها . وكانت من صالحات الأزواج ، أنجبت لـه ابناءه وبناته . وقد هاجرت لصفاقس ، وهاجر عنها سنتهـا 471 هـ الى الأندلس حيث بلغه نعيها بعد نفاسها .

5 ـ أخت شاعرنا الصغرى ، ثم هي قد تزوجت ابن عمتها التي ربتهم الحكيم علي بن أبي الدار .

6 ـ أبو بكر : ولد شاعرنا عبد الجبار . وهو ابنه البكر ، قد أسماه على اسم جده المتوفى . ولعله ولد له أثر وفاة جده حول سنة 465 هـ . وقد قتل بكره هذا سنة 484 هـ مذبوحا أمامـــه .

7 ـ عمر بن حمديس : وهو ابنه الأخير من زوجته (ابنة عمته) . ولعله مولود في مدينة صفاقس عام 471 هـ / 1079 م.

8 ـ بناته من زوجته التي يقول عند رثائه لها :

وبنـات عليـــك منتحبـــات بخـدود مـــخددات بلطـــم

---

3) القصيدة : 29 ، البيتان : 43 ـ 44 .

بتن يمسحن منك خدا كريما بوجوه مـــن المصيبة قتـم
ويناديـــن بالتفجـــع أمـــا يـا فـداء لها احانة غنم (4)

ولسنا نحزر عددهن وانما الجمع يصدق بالاثنين فما فوق.

9 ـ الحسين بن أبي الدار : زوج عمته توفي وشاعرنـــا صغير .

10 ـ الحكيم علي بن الحسين بن أبي الدار : وهو ابن عمة شاعرنا وزوج أخته ، وهو أصغر من شاعرنا ، قد تربيا مع بعضهما . ويعرفنا ديوانه أن هذا الطبيب قد كان كثير العناية دقيق الملاحظة جيد الخط ، مهذبا في هيئته ولباسه وحركاته منظما في حديثه ، بارعا في طبه ، يعتـني بمرضاه عنايته بهندامه وهيأته وحديثه . وكان أديبا وشاعرا ، وله أبناء من أخت شاعرنا وهو بهم رؤوف شغوف .

11 ـ عبد الرحمن ابن أبي الدار : ابن أخت شاعرنا . قد ولد اثر رجوع شاعرنا من المغرب حول سنة 507 هـ . ونشـأ متعلقا بخاله وبالأدب حتى توفي وهو في العشرين من العمر فرثاه شاعرنا بالقصيد (56) .

12 ـ جوهرة : هي جاريـــة الرميكيـــة وابن عبـاد ملك الأندلس . أحبها شاعرنا وأخلصت له وآثرته على الملك نفسه في أحداث طريفة .. فنعمت الشاعـر وذاق فيها الحب فـــي بيت الزوجيـــة ... حتى دقت ساعة أجلها فخلاها تموت أمامه

---

4) القصيدة : 321 : الابيات ، 31 ـ 33 .

دون أن يمد لها يد الانقاذ وهو يبكيها الـــى الأبد بحسرة لا تعرف الا في الخرافات .

13 ـ محمد بن حمديس : هو ابـــن شاعرنـــا الذي عـــاش واشتهر بالأدب كأبيه ولعله ابنه من جوهـــرة .

14 ـ كما عرفنا شعره أن قد تبنى صبية بعد رجوعه مـــن الأندلس الى بجاية فرباها أحسن تربية وزوجها . ثم ماتت في عشرة الأربعين فرثاها بالقصيد 253.

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

ثقافة ابن حمديس في أدبه

ان احكام لغة ابن حمديس وجلاء عبارته ، يلحظ المدقق أن وراءهما ثقافة متسعة وذوقا سليما ، قد مكنا له أن يتحكم في اختيار النظائر التي تعبر بسهولة وجلاء عن معانيه الغريبة وملاحظه العجيبة بحيث يجلي أغرب الأفكار ويخيلها ، أليفة للنفس مؤثرة فيها ، ومثيرة منك جميع الأحاسيس التي قصد اليهـــا .

ومن وراء ذلك الجلاء والاحكام تلحظ من ديوانه علوما متسعة ومختلفة ، قد نضجت فيه واختمرت : ثقافة صحيحة كاملة .

الحقـــوق :

قد يستثير في نفسك بندا من بنود الحقوق العقارية للبناء المتجاور واحتكاك المساكن ، وانما يأتي اليك بذلك ليوضح اليك مصيبة شفري عينه المتجاورين ، وقد أصابه الرمد فملأه أوجاعا وضيما :

كـان حشـو جفـونـي عـنـد سـورتـه
جيـش مـن النمل في جنح الدجـى ساري
كـان اوجـــاع قلـبـــي مـن مطـاعـنـة
بالشـوك مـا بين اشفـاري واشفاري

يشكـو لجفـنـي جفـنـي مـثـل علـتـه
كالضيم يقسـم بين الجـار والجـار (1)

والحقوق انما كانوا يعبرون عليها بالشرع . ومنه التشريع، واسم الفاعل مشرع . فالشرع مقدس فـي الأنفس ومحمي بالقوة العمومية . وهكذا يعبر على الـوازع الذاتي بالشرع بحيث يقابل به المحميات بالسـلاح :

وكـم مـن قطـوف دانـيـات ، ودونـهـا
تعـرض اشـراع من الرمـح او شرع (2)

وتراها صريحة في ما أصبحت عليه الشرائع مـن الوازع النفسي عند قوله :

وفينا بميثاق العهود لربعهـا كأنعهود الربعكانتشرائعا(3)

الى غير ذلك من المدارك الشرعية التي يشير اليها في أدبه ويسوقها في مطاوي الأحداث فيقرب بهـا المـدارك الغامضـة والدقيقـة .

النحـو :

وقد يستعين بالمسائل النحوية لتوضيح حقائق مادية من الحوادث الحربية ، مثلا :

كـأن حـروف اللـيـن كـانـت رؤوسهـم
فلاقيـن حذقـا من وقوع الجوازم (4)

---

1) القصيدة : 128 ، الابيات : 2 ، 4، 13 .
2) القصيدة : 203 ، البيت : 20 .
3) القصيدة : 207 ، البيت : 4 .
4) القصيدة : 306 ، البيت : 66 .

وترى فارسه مـرة أخرى :

يخطف رأس الذمر قطعا به كحذف حرف اللينجزما بـ «لم»
يحرف الرمـح علـى طولـه كـأنما حـرف منه قلـم (5)

وحتى في غراميته يسوق من علم النحـو :

ويا رفـع أشـواق لقلبـي وخفضهـا
متى كان للأشواق فعـل العوامـل (6)
فجـوازي باضطـرار عندهـا
كجواز الحذف في الحرف الدخيـل (7)

طبيـب ؟ :

بالفعل ، فقد وقع في أنفسنا ـ لحظة ـ أن صاحبنـا كـان يتعاطى الطب عندما نقرأ مقاطيعه المتمحضة للطب والنظريات الطبية والارشادات الصحية :

إذا مـا الـهـواء اعتـل كـان اعتـلالـه
محيطـا بـمـا يجريـه فينـا التـنفـس
وربمـا كـان الغـذاء مضـرة
يـذم بـهـا العقـبـى جـهـول وكـيـس
وأمـراضنـا اسبـابـهـن كثيـرة
تحـل بأجسـام فتهلـك أنفـس (8)

ولكن التاريخ يثبت أنـه كـان يحتـرف الأدب ، وديوانـه شاهد . فاذا وقعت فيه مقاطيع طبية بحتة أو صحية فانما هي من آثـار ثقافته الطبية ، التي لم يحترف بها ، على ما نراه .

---

5) القصيدة : 319 ، البيتان : 17 ـ 18 .
6) القصيدة : 270 ، البيت : 5 .
7) القصيدة : 273 ، البيت : 22 .
8) القصيدة : 169 : الابيات : 1 ـ 3 .

فالثقافة الطبية قد كانت منتشرة في صقلية . ومازال طنينها يدوي بتونس في الأمثال العامية « وليت لي : الطبيب الصقلي »، وفي التحذلقات الخرافية عند العامة : « ان الطبيب الصقلي سمي به لأنه كان ما مر بنبات أو حشائش الا همسن له بمنافعهن ، فيرونه بينها هاتفا لهاته وتلك : اسكت ! قل لي . فسمي بهتافاته تلك . وفي المقابر التونسية مشاهد ممتازة لأطباء صقليين قد هاجروا واستقروا هنا فاشتهر طبهم وامتازوا وميزوهم بعد وفاتهم بالنصب التذكارية . وفوق ذلك نرى زميله في التربية والدراسة ، وهو ابن عمته الحكيم علي ابن أبي الدار الذي تزوج اختيهما قد كان حكيما شهيرا في عصره يتقلب بين مصر وصفاقس ، فثقافته العلمية في الطب لا غبار عليها .فاسمعه ينصح مستشيريه من اخوانه المفكرين :

حسن غذاءك ، واعتمد منه على وقت وحد
فالنفس تهزل بالما كل كلما سمن الجسد (9)

فلا غرابة أن نجد له تدقيقات علمية في قصيدته الفريدة التي وصف بها العقرب عندما كانت تساكنه في سقف البيت أيام تشرده باسبانيا :

ومشرعة بالموت للطعن صعدة
فلا قرن ان نادته يوما يجيبها
لها طعنة لا تستبين لناظر
ولا يرسل المسبار فيها طبيبها
يجمد منها مائع السم بغتة
نجيع القلوب في الضلوع يذيبها

---

9) القصيدة : 86 ، البيتان : 1 ـ 2 .

لـهـا سقطـة في الليـل مـؤذنـة بـهـا
اذا وجبـت راع القلـــوب وجيبهـــا
ونـقـر خـفـي فـي الشخـوص كـأنـه
بـكـل مـكـــان ينتحيـــه رقيبـــهـــا
عـــدو مـــع الانســـان يسكـن بيـتـــه
فكيف يوالـي رقـدة يستطيبهـا ؟ (10)

انما يهمنا هنا كناياته عن مختـلـف مواضيعـه الادبيـة والشعرية بثقافته الطبية ، فاسمعه يتغزل :

قـل لـلاساة أسـأتـم فـي عـلاجـكـم
فممرضـي من ضنـى جسمي هـو الآسـي
لا بـــرء يـدركـنـــي الا بطلعـتـــهـــا
شمسا من الأنـس لـم تطلـع عـن الناس
اذا وجـدت مـزاج القـلـب معـتـدلا
ببرد أنفاسهـا فـي حـر أنفـاسي (11)

ويتحدث في غرامياته عن اختلاط الطب بالسحر وهو العصر الذي ولد فيه الطب والتنجيم بين أفذاذ البشريـة ثم اخـذا طريقهما عند العامة في أشكال من السحر والسعود والطوالـع والبركة والنحس . وانما يهمنا هناالطب في اختلاطه بالسحر :

كانالسحر جـيء بـه طبيبـا ليبرئـهن من سقـم العيـون
فلما لم يجد فيـهـا عـلاجـا أقام محيرا بين الجفون (12)

---

10) القصيدة : 32 ، الابيات : 1 ، 9 ، 11 ـ 13 ، 21 .
11) القصيدة : 170 ، الابيات : 1 ـ 3 .
12) القصيدة : 346 ، الابيات : 2 ـ 3 .

ويعرض لمسألة توارث الامراض وهي غير العدوى . فيقول مخاطبا القائد أحمد بن أبي بريدة :

مات من قبل ذا أبوك بداء
أنت من أجله الصحيح العليل (13)

وأصرح منه في ناموس الوراثة الصحية مع القطع بزمانة المرض الوراثي :

اذا ورث المولود علة والد
فبعد به عن حيلة البرء والطب (11)

ويصرح بخور الطبيعة في صور منتوفر الحيوية العامة مع طرو الموت ، وانما جاء به في التشبيه لقوة الدولة الأندلسية على خصومها حتى ضعفتهم بنصر مبين :

سكنت في الآفاق من حركاتهم
والنبض من خور الطبيعة يفتر (15)

ويورد النقاهة من المرض في معارض لاتمت الى الطب بشيء :

وتنفست من روض خلقك نفحة
نقهت بها الآمال بعد سقام (16)

ويورد حالة النكس في معرض من معارض شعره في شيخوخته :

ومن حل في سبعين عاما كأنه
علاج مريض في مواصلة النكس (17)

---

13) القصيدة : 272 ، البيت : 5 .
14) القصيدة : 29 ، البيت : 6 .
15) القصيدة : 125 ، البيت : 26 .
16) القصيدة : 320 ، البيت : 11 .
17) القصيدة : 176 ، البيت : 6 .

ومن أعاجيب تشبيهاته الطبية أن يلمس نبض السماء كلها وأن نصادقه على أن لمسه ذاك انما يكون بعينه وأن مريضه الذي يجس له عرق السماء انما هو الأرض ، وأن العرق النابض قد كان برق السحاب . فهذا كله شاعرية وبلاغة يوري فيها الاديب بالثقافة الطبية البحتة ويجنس فيها بري الأرض العطشى كما لو كانت مريضا يطلب البرء ... مما يعز الجري فيه ، إلاّ على ثقافته الراقية وخياله الخصب :

وعذب الدموع ـ كليل ـ علا
بكاه تبسم برق ومض
كأني من البعد اذ شمته
حسست بعيني عرقا نبض
وجاد على التـرب من صوبه
بري الصدى وشفاء المرض (18)

ونجد كذلك في أدبه من المصطلحات الطبية قسما مهما من الادوات والمواعين الطبية ، منثورة في أدبه . ناهيك بأدوات الطب الجراحي من المسبار الذي تدرك به أعماق الجروح ، ولطيف هنا أن يكون في لمعان البرق نفسه :

عقد الجفون ببارق ثقب الدجى
وخفى كما اضطرب الشعاع لميعه
خذم الظلام وكان من لمعانه
مسباره وحسامه ونجيعه (19)

---

18) القصيدة : 193 ، الابيات 1 ـ 2 ، 4 .

19) القصيدة : 205 ، البيتان : 11 ـ 12 .

الى المبضع الذي يبضع به الجراح . وانما نرى هذا المبضع في ذنب عقرب مخيف عوض الجراح الطبيب ، وهو نوع من روائع أدبه :

وذات خلق يريب الخلق صورتها
فكل ناظر عين ليس يألفها
كأن شوكة عناب بمبضعها
يجرع السم منها من يصادقها (20)

وانما يحدد ظاهرة الموت العام مع بقاء الحياة في الأجزاء كما تراه في رفيف أعصب اشلاء مهبورة مقطعة . وهو ما استفاد منه الطب اليوم لتعويض الأعين والعظام فينقلها عن الجثث الميتة الى احياء الراغبين في الترقيع :

والذي أعجز الأطباء داء فقد روح به ووجدان جسم(21)

آثار ثقافته اللغوية :

ويدخل مباحث اللغة وأسرار تفرع اللغة وتكون موادها في الاشتقاق للمواد اللغوية من بعضها بعضا . ويأتي بذلك في معارض أدبه بحيث لن تستشعر شيئا من ثقل هذا العلم ، اذ يدخله في الغزل :

حذار حساما حده « نظرة » فما
يسمى غشاء العين جفنا لباطل (22)

---

20) القصيدة : 218 ، البيتان : 1 ـ 2 .

21) القصيدة : 321 ، البيت : 18 .

22) القصيدة : 270 ، البيت : 8 .

وكذلك قوله في التنويه بالزرافة ، فقد اشار الى سر مادة « زرف » اللغوي بما فيها من فوت وانزلاق ، من اسرار تولد الألفاظ وما اصطلحوا على تسميته بـ « الاشتقاق الكبير » وهو سر بناء اللغة :

اذا ما اسمها ألقاه في السمع ذاكر
رأى طرفه ما قد عناه بمقول (23)

وفي الغراميات يدمج قاموسه كتاب : « الصحاح » ويأتي معه بأول قاموس قد وضع للعربية وهو كتاب « العين » :

وجدي غريب ما أرى شرحه يوجد في العين ولا في الصحاح
وانما يحسن تفسيره دمع حمى السر به مستباح (24)

ويستعمل في افتضاح الغرام التورية بشروح غريب اللغة ومعمياتها :

صب يذوب الى لقاء مذيبه يستعذب الآلام في تعذيبه
عمى هواه عن الوشاة تكتما فجرت مدامعه بشرح غريبه (21)

ويدخل به مشكلة شيبه وشبابه وما يشرحه الشيب من معميات الشباب الحالكة :

كم معمى منه وكم من غريب والليالي نص تجلى بشرح

---

23) القصيدة : 254 ، البيت : 2 .
24) القصيدة : 74 ، البيتان : 10 ـ 11 .
25) القصيدة : 11 ، البيتان : 1 ـ 2 .
26) القصيدة : 77 ، البيت : 5 .

الصـــرف :

يتحدث عن علي الصنهاجي في تصريفه أمور افريقية وعن حزمه الاداري والسياسي بعد أن قام بواجبات موكب العيد :

ثم انصرفت الىقصورك تبتني مجدا وتهـــدم بالمكارم مـــالا
وتؤكد الاسمـــاء فيما تشتهي من همة وتصرف الافعالا (27)

◆ ● ◆

فصرف في العلا الافعال جزما ورفعا انتحوتبها الصوابا(23)

الحســاب وهو علـم العـــدد :

كما استعمل الحساب فـي ديوانه ودل به على غرائب أدبية حسبنا منها « الصفر » الذي يمثل الخلو المطلق ، فقد تنوع في استعارته والتشبيه بمختلف وجوهه ، ناهيك بتطبيقـه على حالته مع الشابات بعد ما شـــاب :

غيرته غيـر الـدهر فشـــاب ورمته كل خـــود باجتنـــاب
فغدا بيـــن الغواني ساقطـا كسقوط الصفر في عد الحساب
ومحت أسطـر شوق كتبـت بدموع نفسها قلب مذاب(29)

وقد رأيت الطفلة التي عمرها مستو مع عمر شيخوخته . فعمره هو 7 × 8 وهي عمرها 8 + 7 بابدال بسيط بين علامتي الحساب : (في) و (مع) :

---

27) القصيدة : 271 ، البيتان : 66 ـ 67 .

28) القصيدة : 13 ، البيت : 8 .

29) القصيدة : 38 ، الابيات : 1 ـ 2 ، 19 .

بنت سبـــع وثمان وجـدت عمريضربك سبع في ثمان(30)

الى غير ذلك من تلاعباته الادبية التـي تستعمل كل ثقافة علمية للتعبير عن خواطرها الراقية في أدبه البديع ، مما لم نر أن نطيل فيه .

ومن غرائب توريـاته استعمال حيل المحاسبات ومحو آثار المطالبات المالية . يستعمل جميع ذلك في معرض غرامياته . فيأتي بتلك الثقافة على سبيل « التورية » وترشيحها ، وذلك في قصيدته التي حدث بها الأمير أحمد ابـن عبد العزيز بـن خراسان ، وبنو خراسان هؤلاء هم أول من مصر بلدة تونس واتخذها قاعدة للامارة :

كتبت لها(وصـــلا) ؟ اشـــارة نـاظري
فمحـــاه ناظـر طرفهـــا بصـــدود (31)

واستحضاره لهيأة الحساب بعملية على الأصابع ، وكانت لعصره الطريقة الميكانيكية الأولى أن ترى الأصابع فيها : من أيدي وأرجل ركائبـه ومطايـاه :

سأعتسف القفـــار بمرقلات تجاوز في سباسبها انتهابـا
تخال حفيف أيديها سراعـــا حثيث أنامل لقطت حسابا(32)

---

30) القصيدة : 332 ، البيت : 3 .
فالرقمان متماثلان للاثنين ، الا ان نتيجتهما متغايرة : فـي (الجمـع) تعطي 15 عاما ، من عز شباب الصبية . بينما ضرب الرقمين يعرفنا عمره هو ، فهو في الـ 56 من خريف كهولتـه .

31) القصيدة : 92 ، البيت : 8 .

32) القصيدة : 13 ، البيتان : 22 ـ 23 .

الشطرنـــــج :

وعندما أراد ان يصور لنا التدبير السياسي الذي يقوم عليه ملك ناصر الدولة صاحب ميورقة في الأندلس ، فانما مثل لرجال ذياك البلاط بما يمارسونه في أوقات فراغهم من لعبة الشطرنج ، فهي لعبة الخواص :

شدت عزائمه ممالكـه كمـا شدت فرازين بعقد بيادق(33)

فان نصبة الفرز بين ثلاث بيادق في هيئة مثلث تعتبر من الوضعيات الاستراتيجية في لعبة الشطرنـج .

وكانت معتبرة من الرياضات الفكرية التي يروح بهـا ذوو المواهب عن أنفسهم . وما زالت محافظة هاته اللعبة علـى ناموسها وكرامتها بين طبقات هواة المثقفين من الصبورين على طول النظر والمباهين بحسن التقدير ، يبلغ الواحد منهم أن يتمرن ذهنه الى درجة أن يحتم بحركته الواحدة من قطعه 12 حركة مستقبلة ! على نظيره ! ولها نواديها الخاصة في معظم عواصم الدنيا ! حتى الآن .

فبلعبة الشطرنج يشبه الخطة الحتمية الضمينة بالنصر ، مما يدبره الملك يحيى الصنهاجي في مواقفه السياسية المدبرة وخططه الحربية المرسومة :

رب رأي لـــك جهـزت بـــه جحفلا،ذاق العدى منه العطب
كنت يوم النصر عنه غائبـــا وظبى نصـــرك عنه لم تغب
كالذي يلعب في شطرنجـــه رايه في تخته وهو لعب (34)

---

33) القصيدة : 223 ، البيت : 27 .

34) القصيدة : 34 ، الابيات : 51 ـ 53 .

وانما ميزوها كل ذياك التمييز عن سائر الألعاب بما توسعه من دائرة التفكير الجماعي والشبه الذي وضعت عليه بالمجتمع البشري وبالجيش . فان البيادق في لعبة الشطرنج تقوم مقام غمر الشعب في المجتمع وقت السلم لتكون ثمانية القطع الاخرى رمز الطبقات الممتازة والبيادق ترمز للجند في وقت الحرب بينما القطع الاخرى ترمز لقادته وقواته وكلتاهما تنتهي الى الشاه والفرز أي الرئيس الأعلى وممثل الاحداث الجارية . بحيث يتكون تصفيفهم من قلب وجناحين ذوي قوات متماثلة. فأما الغمر والجند فلها نظام واحد واتجاه واحد وعمل واحد ، بينما لكل قطعة من القطع الرئيسية الأخرى عملها الخاص بها وطبيعتها الخاصة وطريقة سيرها وطريقة عملها في التخت

ونجد للشطرنج أدبا خاصا به في العربية من تاريخه وميثيالوجيته ، حتى القصائد الفريدة التي تبلغ مئات الأبيات كأنها « متون العلم » . ناهيك بقصيدة ابن الهبارية ، فانها من أمجاد الأدب العربي (35) .

التاريخ الأدبي :

تاريخ الأدب ومذاهبه ورجاله شعبة قد خدمتها الحضارة العربية ، ودونت لها الكتب وأقيم لها أعظم المعاجم وأشهرها . فلا غرابة أن نجد هاته الثقافة منتشرة في أدب صاحبنا عبد

35) نشرناها كاملة في مجلتنا « العالم الادبي » . وابن الهبارية من الادباء المشارقة ، معاصر لابن حمديس . وقد افاض على العربية كنوزا من ذخائر الادب الفارسي الذي سبكه في قوالب عربية من الشعر العربي الجليل .

الجبار بن حمديس . فامرؤ القيس (36) هو أمير شعراء الادب العربي من قبل الاسلام ، وبنخوته في أدبه يضرب المثل وهو صاحب المعلقة الأولى من قصائد الجاهلية ـ قـــرن كامل قبل الاســـلام ـ المنوه بها في الاســـلام .

قفـــا نبك من ذكرى حبيـــب ومنزل

ومن هناك فقد كنى به ابن حمديس في مغازلته :

وفيـــك علـــى الـــروّاض ادلال صعبـــــة

ينـــال بـــه عز امرىء القيس اذلال (37)

وهو من أمراء كندة اليمن وقد هجر اليمن في صولة أبيه حجر وطاف الجزيرة من أحسائهاحتى حجازها ونجدها والشام ، وهو قد نزل مدينة القسطنطينية.ونجد له غراميات قد شبب فيها ببنت قيصـــر ، فـــأرســـل لـــه بدلـــة ملكيـــة مسمومـــة ، فمات فيها ، وفي شعره نتف من غرامياته في كل مضرب من منازل الجزيرة ، بما سهل شيوعه على شاعرنـــا أن يرمـــز لتنقلات صديقة شبابه التي هاجرت للحجـــاز :

معاهـــد مـــا زال امـــرؤ القيس بـــينها

يـــعبر عن معنـــى الهـــوى ويترجـــم (38)

---

36) توفي امـرؤ القيس سنة 560م .

37) القصيدة : 250 ، البيت : 29 .

38) القصيدة : 284 : البيت : 25 .

ويجمل قصة شاعر شهير مع صديقته لينظر به موقفه :

رأتـــني سليمـــي والقـــــذال كأنمـــا
تنفس غـيـــه الصبـــح فابيـــض حالكـــه

كـمـــا نظـرت سلمـي الـى رأس دعبـل
وقد عجبت ! والشيب يبكيك ضاحكه (39)

أنسيتـــنا بـأيـاد منـــك نذكـــرهـا
خصيب مصـر ومـا أهـداه للحكمـــي

وقد طويت لنـا الطائـي بمـا نشـــرت
مـن المفـاخـر عـنـه السـن الامـــم

ولـــــو رآك زهـــير في الـــعلا لثنـى
لسانـه عـن كريـم المـدح في هـرم (40)

وتراه يجمل روح « لزوم ما لا يلزم » أو « اللزوميات » التي هي ديوان أبي العلاء المعري الذي ظهر فيه بتشاؤمه وتجافيه المجتمع ، فيوضح لنا وقع هديل حمامه في نفسه الطروب :

حمامـة أيـك ، ما لهـــا فوق غـــصنهـا
غنـاء له عند المعـري اعـــوال (41)

الأدب :

ونجده بين الأدباء يحدثهم بلب الأدب وبقواعده الادبية البحتة وبما يعرفونه من طبيعـة الأدب الصرفـة . فمن ذلك

---

39) القصيدة : 238 ، البيتان : 11 ـ 12 .

40) القصيدة : 311 ، الابيات : 28 ـ 29 ، 32 .

41) القصيدة : 250 ، البيت : 57 .

اعتذاره عن شيوعيته في الغرام اذ أصبح يحب الجميلات جميعا ولا يقصر عشقه على صبية بعينها . ولا يريد أن يتزوج ويريح الشبان من استهتاره ، فيعتذر لهم بأنه قد كان أحب صبية بعينها ـ وهذا حق كما رأيناه في سيرة حياته ـ ثم هو قد أحب الصبايا جميعا بقياس أدبي صريح :

حفظت الدمى ، لهوى دميـــة ويحفظ ـ لنبيت ـ كل القصيد42

◆ ● ◆

وسيف الأمير علي يضرب به ويطعن به :

ضربا وطعنـا بشبا منصل كأنه لفظ لـه معنيـان (43)

ويشبه النجائب المضمرة في طي المسافات الشاسعة بلباب من معنويات الأدب :

ونجائـــب مثـــل القســـي ضوامـــر
وصلـــت بقطـــع سباســـب وسهـوب
مـن كـل مختصـر الفـــلاة ، بمعجـــل
فكأنهـا ايجـــار لفـظ أديـب (44)

وكرم الملك علي يوريه بطبائع الشعراء :

نداك بطبع للعفاة ارتجلته وغيرك روى فيداه تكلفا(45)

◆ ● ◆

---

42) القصيدة : 84 ، البيت : 5 .

43) القصيدة : 334 ، البيت 42 .

44) القصيدة : 37 ، البيتان : 28 ـ 29 .

45) القصيدة : 211 ، البيت : 49 .

يجـــود ارتجـــالا بالمنـــى ، لا رويـــة
فلا حكـم تسويف عليـه ولا وعـد (46)

الثقافـة الكتابيـة :

ندرك أن صاحبنا قد كان كاتبا أديبا قبل كل شيء . ومن هنا نراه مستغرق الـتعبير بـــأدوات الكتابـــة وتصاريفها ومصطلحاتها بحيث يرفع لها كلما أراد أن يعبر به اليك والى الكتاب جميعا فيضخها باستعاراته حتـى فـرق الجيـش ، فـــهي :

كتـــائب يـــعلوهـــا مثـار قتامهـــا
كما نثرت أيـــد متربـة كتبـــا (47)

والخيل تترب الأسطر المتكونة من ذؤابات الرماح التي تخفق على صفوف كوكبة الأبطال فتصبح البطاح بها كالمهرق مـن الورق المكتوب وقد تربه كاتبه لينشف خبره :

ومطلة فـي الخافقيـن خوافق كقلوب أعـداء ذوات وجيـب
من كل منشور على أفق الوغى مسطورة كالمهـرق المكتـوب
جاءت تتربه العتاق بنقعهـا والريح تنفضه من التتريب (48)

ثم ان الكتائب والكتابات التي رأينا منها أسطرا بالنقـش ورأينا تتريبها ، يتقدم صاحبنا لتفهمها :

وكتيبـــة كتبـت صـــدور رماحهـــا
للموت في صحف الحيازم أسطرا (49)

---

46) القصيدة : 99 ، البيت 36 .
47) القصيدة : 35 ، البيت : 32 .
48) القصيدة : 37 ، الابيات : 31 ـ 33 .
49) القصيدة : 147 ، البيت : 41 .

اذ يتجلى له مشقات القلم ، وانـــما يستعيرها لضربـات الأمير يحيى :

قلـم يمشـــق فـي الطعـن ، فقـــل
أمحـا العمـر ؟ أم المـوت كتب (50)

وانما ناسبه استعارة الأقـلام والكتابة لان الأمير يحيى الذي يتحدث عنه لم يكن ممن ينزلون المعامـع بانفسهم بـل كانت أعماله برامج عليا وأوامر تصدر للقيادة البرية وللقيـادة البحريـة .

حتى أن شاعرنا أصبح لا يرى من الأمير غير أقلام وتوقيعات فعمت في أدبه تلك المدارك حتى شبه بها اذن فرس الأمير في تذببها وانتصابها :

له قلم في الأذن تحسب أنها بنصرك للتوقيع في الجيش حرفا

وتشبيه الاشياء بالقلم لا تقف عند آذان الخيل بل تتعدى الى منسر الباشق الذي يتحدث عن براعته لصحبه الكتاب بعد مفلة الصيد الموفقة :

وعـاد باشقي وفيا بالذمـم بمنسـر يمسح عنه فضل دم
مسحـك ميـاع المداد بالقلـم (51)

ويتعدى بأقلامـه الى الطير ، فيريك مناقيرهـا أقلامـا مشقوقـة :

ومـا أرق الأجفـان الا بلابـل
تسامرهـا بين الظلـوع بلابلـي

---

50) القصيدة : 34 ، البيت : 49 .

51) القصيدة : 295 ، البيت : 28 ـ 29 .

تنـــال صغـــار الحب لقطـــا وتحتســـي
بشقـــات أقلام تمـــاد المناهـــــل (52)

بينما الأمير علي قد كان يباشر الحـــرب بنفسه ويخوض معامعهـــا :

اذا ما بـــدا طعـــن الكمـــاة وضربهـــم
كنقط وشكل عن حروف تصفنا (53)

ويستحضر الكتابة والتوثيق والامـــلاء ... في غرامياتـــه التي يقدم بها على المحفـــل :

ولمـــا كتمت الحب في القلب وارتقـــى
الى الطرف ماء العين أنكر ما أملا (54)

ويستحضر للملك المعتمد جميع صيغ اعداد الأوامر فـــي الدواوين عند تهنيته بحفلة توقيع الأمر بولاية عهده الى ابنـــه الرشيـــد :

لئـــن قلت فيـــه صـــح تاليف ســـؤدد
فبارع نقل من شمائلك استملى (55)

فمعظم غزلياته وقصائد لهوه التي يسامـــر بها نفســـه أو محافل الشباب ورجال الكفاءات من أدبـــاء عصره وعظمائـــه

---

52) القصيدة : 270 ، البيتان : 17 ، 19 .
53) القصيدة : 211 ، البيت : 43 .
54) القصيدة : 259 ، البيت : 8 .
55) القصيدة : 259 ، البيت : 33 .

السادة والاخوان ، تجده يعتمد فيها الشؤون الكتابية ، حتى سالف الحبيبة عندما تعقربه على عارضها :

يصد بورد فوق خد كأنما
يقبله صدغ بعطفة لامه (56)

ويحدثهم عن دروع الحديد المؤلفة من خوصات متداخلة من زرد الحديد الذكير :

ودروع قد ضوعف النسج منها
وتناهى في سردها التقدير
كصغار الهاءات شقت فأبدت
شكلها في صفوف جيش سطور (57)

ويستعير من الكتابة لبيان ملاحقة كلبه لغزال كان نافرا يوم الصيد والسلوقي يلاحقه :

فمر في غيم من الغبار
يشكل عنه أحرف الآثار (58)

الموسيقى :

لعل العود قد كان أعز آلات الموسيقى في تلك الحضارة العربية من بغداد الى الأندلس . وهو قد نوه به كثيرا ، كما تراه في دراستنا « اللهو في أدب ابن حمديس » .

ومن أبدع كناياته بالعود :

ولقد يهيج لي البكاء صبابة شاد مطوق آلة التغريد

---

56) القصيدة : 293 ، البيت : 8 .

57) القصيدة : 151 ، البيتان : 51 ـ 52 .

58) القصيدة : 116 ، البيت : 45 .

باتت سواري الطل تطرز ريشه بجواهر لم تدر سلك فريد
غنى على عود يميس به كما غنى التقابل معبد بالعود (59)

وانما هنا لم يرد به الا هديل حمام على غصن ، فرفعه الى أبدع الآلات الموسيقية واستحضر لك التشبيه بنغمة «التقابل» من توقيع معبد ! وهو قد تلطف في النص على طوق الحمامة فجعله « تقليدا » كما يقلد الممتاز عن جدارة .

ونرى مصطلحات هذا الفن بلغتهم ، عندما يهيب بالقينات المتراكنات في مسارتهن وسط المحفل :

أظلوم ! منك تعلمت ظلمي حربا ، وكانت قبل ذا سلم
كانت بهجري غير عالمة فهديتها منه الى علم
هذا وفاق في مخالفة كالزير تصلحه على البم

فالوفاق في المخالفة توقيعة هزازة مطربة . والزير والبم هما الوتر الرقيق والوتر ذي الصوت الأغلظ من آلة العود .

ويشبه أصوات الطير بالانغام الموسيقية المعروفة لديه والتي خلدها لنا ابو الفرج الأصبهاني في كتابه الأعظم « كتاب الاغاني » :

حيث غنتني شوادي روضة مطربات بخفيف وثقيل
في أعاريض قصار خفيت رقة في الوزن عن فهم الخليل
ولحون حار فيها معبد اله علم بموسيقى الهديل؟ (55)

فالموسيقى والتلحين كانتا تدرسان ولهما أساتذتهما اللذين اختصوا القدرة على تعليمهما ، وهم غير المطربين . وهذه

---

54) القصيدة : 92 ، الابيات : 9 ـ 11 .

60) القصيدة : 273 . الابيات : 14 ـ 16 .

حقيقة نجدها مقررة في جميع كتب تلك العصور من جميع أطراف المشرق والمغرب الاسلامي . وكان للعظماء أساتذة يختصونهم بتعليم أبنائهم وفتياتهم وجواريهم . وآخر هاته الطبقة ممن عرفناهم في عصرنا الاستاذ اسكندر شلفون .

وانما هاته المدرسة الموسيقية يقدمها لنا ابن حمديس مشبها بها الطيور في الروضة بين الزهور المزدرعة الشذية :

ولابسة ظلي دجاها وأيكها ... وللسجع منها في القلائد اعمال
شدت فانثنت رقصا بكل سميعة ... من الطير مهتز من القضب ميال
فهل علماء في الشوادي؟ مصيخة ... اليهن خرس بالترنم جهال(61)

وذياك الغناء والموسيقى يتبعه دائما الرقص ، وله فنه وميزانه الذي يتبع الأنغام ويواقعها بحركاته :

وراقصة بالسحر في حركاتها
تقيم به وزن الغناء على حد
منغمة الفاظها بترنم
كست معبدا في عزه كسوة العبد(62)

والغناء وموسيقى الأوتار لا يقل عليها ولا تستغني عن موسيقى الصفير من الآلات النفخية . وانما يقدمها لنا ابن حمديس مشبها بها ومجازات لوصف غيرها . وبالموسيقى يصف انغام الطيور غالبا :

بفواحة النور ، مكاؤها
يرجع في كل غصن صفيره

61) القصيدة : 250 ، الابيات : 36 ، 38 ـ 39 .

62) القصيدة : 94 ، البيتان : 1 ـ 2 .

كـان الفـــرزدق مـــن طيرهـــا
يجيب على كل شعـر جريـــره (63)

ولكنه لا يقتصر على الطير ، فان للخيل صهيلا وله موسيقاه المحببة الحنـون :

واذا تغنى بالصهيل مطربـا أنسى أغاني معبد ومخارق

الفلسفـــــة :

ويستعمل المصطلحات الفلسفية ، فيأتي بالغرائب . وقد تفنن بذلك في صفة الخمر . فخمرته المعتقة الرقيقة الصافية:

أفنت الأحقاب منها جوهـرا ما خلا القسم الذي لا ينقسم

ويصف فعل الخمر بالمصطلحات الفلسفية ايضا :

جوهـر يبعث المـــودة منـــه اعرض في لطائف الجسم ساري
وكأن العيـون تلحـظ منـــه صورة روحها من الجرم عاري

ويسلسل تلك المصطلحـات :

وصفـراء كالشمـس تبـدو لنـــا
مـن الكـاس فـي هالـة مستديـره
يلاعبهـــا المـــاء فـــي مزجهـــا
فيضحكهـــا عـن نجـوم منيـــره
زجـــاج وخمـــر ومـاء ، كمـــا
تقـول : هيولى ونفس وصورة (67)

---

63) القصيدة : 119 ، البيتان : 9 ، 11 .
64) القصيدة : 223 ، البيت : 14 .
65) القصيدة : 302 ، البيت : 15 .
66) القصيدة : 146 ، البيت : 11 .
67) القصيدة : 119 ، الابيات : 1 ـ 2 ، 5 .

الزيـــــــج :

الزيـج شعبـة مـن علـم الفلـك (Doctrine Zabularum) تختص بترتيب جداول باقترانات الكواكب ومدارات الأفلاك والبروج . فهي من العلم الذي لا غبـار عليـه . وقـد أقيمت للأرصاد الفلكية الصروح والبناءات التاريخية التي تخلدت في الكتب المقدسة والتواريخ ، ثم جاءت الأحافيـر فأيـدت النصوص الواردة كما أن تلك الأرصاد العلمية مازال الفلـك شاهدا بصدقها ومبلغ ما عاناه العلم فيهـا .

ولكن ناحيتها العلمية كانت غاية لا تدركها عقول العموم فثبتت بالسحر وتأثير تلك الاقترانات بسعود زيد ونحوس عمرو مما جعل شاعرنا ينزه عنه الغراب :

ومحولـك ما فـك زيجـا ولا لـــه
بسـر قضاء النجم علم ولا طبـع (68)

وأصرح من هذا ، في انكار ابن حمديس للناحية الغيبية من تلك الاقترانات والجداول العلمية عن تسيارات الفلك :

لقد ضل عباد النجـوم ومـا اهتـدوا
ببعـث رسـول للأنـــام ولا ذكـــر

وكم مر في الدنيا لهم من ممخـرق
من الناس مطوى الضلوع على غمـر

اذا جال في علم الغيوب حسبتـــه
مسيلمـة الكذاب قـام مـن القبـــر

---

68) القصيدة : 203 ، البيت : 12 .

أباطيـل تجري بالحقائق بينهـــم
من الكذب منهم لا من السبعة الزهر
وميـل اليهـا بالظنـون ، وانمـــا
ينكب عنها كل يقظان ذو حجر (69)

ومع ذلك الانكار لنحوس الاقترانـات وسعود مطالـــع الكواكب فاننا نرى شعره مليئا بتفاصيل من الناحية العلميـة لهذا العلـــم .

وانما عرف العالم الأوروبي علم الفلك من طريق العـرب . فهؤلاء العرب في نهضتهم للقرن الثاني عن الهجرة قد نقلـوا محصول فارس ومحصول علوم الهنود . فاشـهر أرصاده الأولى مما نقله العرب قد كانت للهند ثم أرصاد فـارس ثم أرصاد المصريين والأشوريين الذين اشتهر لهم المرصد العظيم الـذي لـقبه « صرح بابل » لاقامته في حوزتها مدينة بابـل .

وقد خص حاجي خليفة (70) هذا العلم بدراسة لا بأس بها عدد فيها المراصد التي عرفها العرب بما تخلد للانســان مـن جداول أرصادها التي تحصلها العلماء المختصون :

« فأقدمها رصد ابرخس وقد بني سنة 1400 .

وبعده رصد بطليموس بمائتي سنة و 85 سنة .

---

69) القصيدة : 143 ، الابيات : 8 ـ 12 .

70) حاجي خليفة ولد باسلمبول سنة 1608 م . واسمه مصطفى بـن عبد الله حاجي خليفة ، كتب في نظارة الحربية للخلافة العثمانية ، ثم ارتقى مساعدا في الوزارة المالية للسلطنة . وله الموسوعة الكبرى في اسماء المؤلفات باللغة العربية قد ترجم فيها لـ 14.000 اربعة عشـر الـف كتاب مع الالمام بتراجـم مؤلفيها وبسطة عن تاريـخ كل علـم اسمـاه « كشف الظنون عن اسماء الكتب والفنـون » توفي سنة 1670 م .

وبعده ـ في ملة الاسلام ـ رصد المأمون ببغداد في سنة 214 هـ .

ورصد البتاني في حدود الشام .

ورصد الحاكم بأمر الله الفاطمي على جبل المقطم بمصر ... » (71) .

ولم يكن الانسان يتلقى العلوم على وجهها ، في عصوره الأولى ، فكان العلم يخلط بالعقائد وتقوم عليه عبادات روحانية وشيطانية غريبة ، فعلى الأرصاد العلمية التي كان يقوم بها الخواص قد قامت عبادة الشمس وعبادة الكواكب ثم تعرض الأنبياء لتلك الأوهام بالتفنيد الا أن فشو الجهل قد اكتفى بتحويل عقائد العبادة بالايمان الوهمي . ورأينا القادة يستثمرون تلك الأوهام في أممهم ، فلا يتحرك الجيش الروماني أو البزنطي أو الفارسي ، وحتى الجيش الفاطمي في القاهرة قد كان ـ كذلك ـ لا يتحرك الا بعد أن يأخذ له المنجم حساب الطالع ليحقق له النصر بالطالع السعيد ! وحسبنا من ذلك أن نرى صديق شاعرنا ووفيه ملك الأندلس المعتمد بن عباد لما تغلب عليه عدوه سنة (484 هـ / 1191 م) . انما يفزع لمنجمه أبي بكر الخولاني يسائله :

أرمدت ؟ أم بنجومك الرمد ؟ قد عاد ضدا كل ما تعد
هل في حسابك ما نؤمله ؟ أم قد تصرم عندك الأمد ؟..

ولكننا رأينا أن معاصرة شاعرنا لكل تلك الأوهام لم تجعله يؤمن بشيء من خرافات المغيبات من أرصاد النجوم . ومع

---

71) كشف الظنون ج 3 ص 561 طبع ليزيق .

ذلك فهو على علم من أوضاع الكواكب وهياتها وارصادها بحيث تجد شعره مليئا بثقافته المتمكنة من هاته الشعبة ، ليزخرف شعره ويعبر لأهل ذاك العلم عن عواطفه وشعوره :

ونصلت سهمي مقلتيك ليصميا كنصال سهم الضرب وهي حرار
وهما المعلى والرقيب وانما قلبي المعذب بينها أعشار(72)

الطبيعـــــــة :

وعلم الطبيعيات لم يستقل بنفسه لعصر صاحبنا ولا استقل بمصطلحاته وانما كان مدمجا في لمح ، أو هو موزع على الصناع والعريفيين . دون أن يدون منه غير الطب والفلك مما أفردوه على حدة .

ومع ذلك فاننا نجد منه لمعا في أدبه . فمن لطائفه ما وصف به فرند سيف :

اذا ما بدا من غمده قلت : رفعت
بخارا لطيفا فوق جدوله الشمس(73)

والطف منه أن يقدم اليك صناعة تقسية الحديد وحيلة تذكيره ، ليوضح اليك لين طفلة ناشزة عنه برغم غزله فيها وملاطفة أخلاقها . وهو لا يشك في قيمة ما يبذله من اللين ، ولكن كيف يفهمك أن ينتج اللين كل تلك القساوة :

فتاة اذا استعطفت باللين قلبها
على الصب أضحى – وهو من حجر – أقسى

---

72) القصيدة : 155 ، البيتان : 23 – 24 .

73) القصيدة : 179 ، البيت : 3 .

ولا شـــك أن المـــاء رطـب وكلمـــا
سقيت حديـدا منـه زاد بـه يبسـا (74)

◆ ● ◆

ونجد ابن حمديس يخصص مقاطيع أدبية يصف بها غرائب من المصنوعات الميكانيكية التي تفوقت بحركة باكـورة مـن الآلات الحربية القائمة على تصفية البتـرول واستعمالـه لاحراق المراكب العـدوة ، اذ يصف أسطـول الأميـر حسـن الصنهاجي في رد الهجوم الصليبي عن المهدية سنة (516 هـ / 1122 م) :

ترمـي ببروج ان ظهـرت لعـدو محرقـة بطنـا
وبنفـط أبيـض تحسبـه مـاء وبه تذكي السكنا (75)

وهذا من رقي النهضـة الافريقيـة في ذلك العصر ، ممـا يحسن أن يدرس وتجمع له الوثائق لنعرف مبلغ ما وصلوه في صناعات النفط (البتـرول) .

وهو حادث علمي وصناعي كيميائي ، يمكننا اليوم أن نقدر قيمته ونقدر ما كان يحدث به لو تابع الأفارقة منهاجه . ولكن ـ ويالاسف ـ رأينا علماءنا وطبقاتنا المدركة تنظر لمثل هذه الأحداث باحتقار ولا يمكن أن تعطيها شيئا من عنايتها التي تعطيها لمشكلة « القضاء والقدر » أو مشكلة «السنة والبدعة» بل كانوا يعتنون بالنظريات الفارغة عناية كاملة ويحتقرون مثل هاته التيارات والاستكشافات العلمية التي يحصرونهـا

74) القصيدة : 167 ، البيتان : 3 ـ 4 .

75) القصيدة : 335 ، البيتان : 56 ـ 57 .

في طبقات الصناعة ، وكانت الصناعة في ذلك العهد انما تعتبر درجة ثانية بعد « العلم » عن ذكرها ويستكبر العلماء عن أهلها من أهل الصناعة .

على أننا نعرف ـ من جهة أخرى ـ أن « بيت الحكمة » قد كان موجودا في القيروان منذ القرن الثامن ميلاديا . وأن الأمير يحيي الصنهاجي كان يحضر بنفسه اليها لمشاهدة بعض التجارب المهمة ، حتى أن حادثا كاد يقضي على حياته فاجاه في بيت الحكمة يوم موعد من مواعيد تلك التجارب وقد هلك فيه وزيره علي بن أحمد الفهري لحينه سنة (509 هـ/1107 م) ولكن ذلك كله لم يكن يهم العلماء وأصحاب الشأن بل ان المؤرخين أنفسهم لم يعتنوا بشيء مما كان يقع في « بيت الحكمة » التي هي المختبر الكيمياوي للدولة في افريقيا الاسلامية العربية .

وليس هنا موضع لشيء من هذا .

التاريخ :

شعر عبد الجبار بن حمديس تاريخ شعري لأحداث عصره ، بحيث نجد في ديوانه دقائق جليلة من التاريخ ونجد فيه تفاصيل جليلة لأحداث مهمة لم يتفطن لكتابتها المؤرخون فيما بقي الينا منهم . سواء في ذلك حوادث الملوك والوزراء والنخبة أو حوادث الانقلابات والدولة وتاريخ التوازن في البحر المتوسط ، في حوضه الغربي ، من الأندلس حتى طرابلس الغرب والحروب الصليبية وحوادث ملوك الطوائف في الأندلس وفي افريقيا وفيه صور كاملة عن بلاطات أمراء صنهاجة وتقلباتهم .

واهم من ذلك ، انه قد أبقى لنا من ديوانه معلمة جامعة لعاديات العصر الصنهاجي ، من أخلاقه وعاداته الى نظم المواكب حيث نرى الأمير يتقدم موكبه فيلان وزرافتان ، ونرى حفلات صيد الطير بالبازي وبالبندقية وبالقوس ، ونرى حلقات الفرسان تدور بالغابة لتمشط حيوانها ... الى أدوات المنزل والكتابة ... حتى اني طمعت أن أضع (دائرة المعارف الصنهاجية) عندما كنت أدرس ديوانه في حقبة تفرغي له وأنا في دار الحرب من أرض ايطاليا سنة 1944 . ولكن الحرب انتهت وأخذتني شواغل الأيام عن اتمام ما بدأت فيه . وقد وزعنا منها على شرح ديوانه كما أننا نقلنا قسم أدوات التزين في كتابنا « الحب والجمال » كما عرضنا لشيء من أدوات الحرب وأحداثها في كتاب « الوطنية في الأدب العربي وديوان ابن حمديس » المطبوع سنة 1952 بتونس .

سحب من هذا الكتاب 3000 نسخة فى طبعته الاولى

طبع هذا الكتاب بمطبعة أوميقا للنشر

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

www.moswarat.com

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com